بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الحجر

مقدمة :

وهي مكية .

قال الشوكاني : وهي مكية بالاتفاق .

أسماؤها :

سورة الحِجر ، سميت بذلك لأن الله تعالى ذكر فيها ما حدث لقوم صالح ، وهم قبيلة ثمود وديارهم في الحجر .

قال ابن عاشور : سميت هذه السورة الحجر ، ولا يعرف لها اسم غيره ... ووجه التسمية أن اسم الحجر لم يذكر في غيرها.

والحجر اسم البلاد المعروفة به وهو حجر ثمود وثمود هم أصحاب الحجر.

أغراضها :

افتتحت بالحروف المقطعة التي فيها تعريض بالتحدي بأعجاز القرآن.

وعلى التنويه بفضل القرآن وهديه.

وإنذار المشركين بندم يندمونه على عدم إسلامهم.

وتوبيخهم بأنهم شغلهم عن الهدى انغماسهم في شهواتهم.

وإنذارهم بالهلاك عند حلول إبان الوعيد الذي عينه الله في علمه.

وتسلية الرسول ﷺ على عدم إيمان من لم يؤمنوا ، وما يقولونه في شأنه وما يتوركون بطلبه منه ، وأن تلك عادة المكذبين مع رسلهم.

وأنهم لا تجدي فيهم الآيات والنذر لو أسعفوا بمجيء آيات حسب اقتراحهم به وأن الله حافظ كتابه من كيدهم.

ثم إقامة الحجة عليهم بعظيم صنع الله وما فيه من نعم عليهم.

وذكر البعث ودلائل إمكانه. (تفسير ابن عاشور) .

(الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ (١) رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ (٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣)) .

[الحجر : ١-٣] .

(**الَر**) من الحروف المقطعة وقد تقدم الكلام عليها وفي معناها .

(**تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ**) اسم الإشارة تِلْكَ يعود إلى الآيات التي تضمنتها هذه السورة، أو إلى جميع الآيات القرآنية التي نزلت قبل ذلك.

والمراد بالكتاب: القرآن الكريم، ولا يقدح في هذا، ذكر لفظ القرآن بعده، لأنه- سبحانه- جمع له بين الاسمين تفخيماً لشأنه، وتعظيماً لقدره.

أي: هذه آيات القرآن .

وسمي القرآن كتاباً:

لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ: كما قال تعالى (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ).
وهو مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة: قال تعالى (فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ. فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ. مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ)
وهو مكتوب في الصحف التي بأيدينا، ونقرؤه من هذه الكتب.
–قال الخازن : تلك إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات والمراد بالكتاب وبالقرآن المبين : الكتاب الذي وعد به الله محمداً وتنكير القرآن للتفخيم ، والتعظيم .
(**وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ**) أي: وقرآن بيّن واضح .
لأن الله بيّنه وفصّله .
كما قال تعالى (لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ .ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ).
وقال تعالى (كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) .
وأيضاً من (أبان) المتعدي الذي معناه (بيّن) أي : أوضح ما يحتاج إلى بيان .
والمعنى على هذا : وقرآن مبيّن للحق من الباطل ، والحلال والحرام ، والمشروع والممنوع .
كما قال تعالى (مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ) .
وقال تعالى (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ) .
–قال الآلوسي : وفي جمع وصفي الكتابية والقرآنية من تفخيم شأن القرآن ما فيه، حيث أشير بالأول إلى اشتماله على صفات كمال جنس الكتب الإلهية فكأنه كلها، وبالثاني إلى كونه ممتازاً عن غيره، نسيجاً وحده، بديعاً في بابه، خارجاً عن دائرة البيان، قرآناً غير ذي عوج.
–قال البغوي : فإن قيل: لِمَ ذكر الكتاب ثم قال { وَقُرْآنٍ مُبِينٍ } وكلاهما واحد؟
قلنا: قد قيل كل واحد يفيد فائدة أخرى، فإن الكتاب: ما يكتب، والقرآن: ما يجمع بعضه إلى بعض.
وقيل: المراد بالكتاب: التوراة والإنجيل، وبالقرآن هذا الكتاب.
(**رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ**) أي : ود الذين كفروا عند ما تنكشف لهم الحقائق. فيعرفون أنهم على الباطل، وأن المؤمنين على الحق، أن لو كانوا مسلمين، حتى ينجوا من الخزي والعقاب.
كما قال تعالى (وَلَوْ ترى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النار فَقَالُواْ يا ليتنا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ المؤمنين) .
وقال تعالى (حتى إِذَا جَآءَتْهُمُ الساعة بَغْتَةً قَالُواْ يا حسرتنا على مَا فَرَّطْنَا فِيهَا) .
وقال تعالى (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظالم على يَدَيْهِ يَقُولُ يا ليتني اتخذت مَعَ الرسول سَبِيلاً) .
هذا، وللمفسرين أقوال في الوقت الذي ود فيه الكافرون أن لو كانوا مسلمين :
فمنهم من يرى أن ودادتهم هذه تكون في الدنيا .
ومنهم من يرى أنها تكون عند الموت .
ومنهم من يرى أنها تكون عند الحساب، وعند عفو الله عن عصاة المؤمنين.
والحق أن هذه الودادة تكون في كل موطن يعرف فيه الكافرون بطلان كفرهم، وفي كل وقت ينكشف لهم فيه أن الإسلام هو الدين الحق.
فهم تمنوا أن لو كانوا مسلمين في الدنيا، عند ما رأوا نصر الله لعباده المؤمنين، في غزوة بدر وفي غزوة الفتح وفي غيرهما .
فعن ابن مسعود ﷺ ود كفار قريش ذلك يوم بدر حين رأوا نصر الله للمسلمين .

وهم تمنوا ذلك عند الموت كما حكى عنهم- سبحانه- ذلك في آيات كثيرة :

منها قوله تعالى (حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْت) .

وهم يتمنون ذلك عند ما يعرضون على النار يوم القيامة.

قال تعالى (وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقالُوا يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) .

وهم يتمنون ذلك عند ما يرون عصاة المؤمنين، وقد أخرجهم الله -تعالى- برحمته من النار. (التفسير الوسيط) .

–قال ابن عطية : اختلف المتأولون في الوقت الذي يود فيه الكفار أن لو كانوا مسلمين :

فقالت فرقة : هو عند معاينة الموت في الدنيا – حكى ذلك الضحاك – وفيه نظر .

لأنه لا يقين للكافر حينئذ بحسن حال المسلمين .

وقالت فرقة : هو عند معاينة أهوال يوم القيامة – قاله مجاهد – وهذا بين ، لأن حسن حال المسلمين ظاهر ، فتود .

وقال ابن عباس وأنس بن مالك : هو عند دخولهم النار ومعرفتهم بدخول المؤمنين الجنة .

–قال البغوي : واختلفوا في الحال التي يتمنى الكافر فيها الإسلام.

قال الضحاك: حالة المعاينة .

وقيل: يوم القيامة.

والمشهور أنه حين يخرج الله المؤمنين من النار.

قال الشوكاني : وَكَانَتْ هَذِهِ الْوِدَادَةُ مِنْهُمْ عِنْدَ مَوْتِهِمْ أَوْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَالْمُرَادُ أَنَّهُ لَمَّا انْكَشَفَ لَهُمُ الْأَمْرُ، وَاتَّضَحَ بُطْلَانُ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ، وَأَنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ هُوَ الْإِسْلَامُ لَا دِينَ غَيْرُهُ، حَصَلَتْ مِنْهُمْ هَذِهِ الْوِدَادَةُ الَّتِي لَا تُسْمِنُ وَلَا تُغْنِي مِنْ جُوعٍ، بَلْ هِيَ لِمُجَرَّدِ التَّحَسُّرِ وَالتَّنَدُّمِ وَلَوْمِ النَّفْسِ عَلَى مَا فَرَّطَتْ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَقِيلَ: كَانَتْ هَذِهِ الْوِدَادَةُ مِنْهُمْ عِنْدَ مُعَايَنَةِ حَالِهِمْ وَحَالِ الْمُسْلِمِينَ وَقِيلَ: عِنْدَ خُرُوجِ عُصَاةِ الْمُوَحِّدِينَ مِنَ النَّارِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ الْوِدَادَةَ كَائِنَةٌ مِنْهُمْ فِي كُلِّ وَقْتٍ مُسْتَمِرَّةٌ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ بَعْدَ انْكِشَافِ الْأَمْرِ لَهُمْ .

وقال الشنقيطي : وَأَقْوَالُ الْعُلَمَاءِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ رَاجِعَةٌ إِلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ ; لِأَنَّ مَنْ يَقُولُ : إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا احْتُضِرَ وَعَايَنَ الْحَقِيقَةَ تَمَنَّى أَنَّهُ كَانَ مُسْلِمًا ، وَمَنْ يَقُولُ : إِنَّهُ إِذَا عَايَنَ النَّارَ وَوَقَفَ عَلَيْهَا تَمَنَّى أَنَّهُ كَانَ مُسْلِمًا ، وَمَنْ يَقُولُ : إِنَّهُمْ إِذَا عَايَنُوا إِخْرَاجَ الْمُوَحِّدِينَ مِنَ النَّارِ تَمَنَّوْا أَنَّهُمْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ، كُلُّ ذَلِكَ رَاجِعٌ إِلَى أَنَّ الْكُفَّارَ إِذَا عَايَنُوا الْحَقِيقَةَ نَدِمُوا عَلَى الْكُفْرِ وَتَمَنَّوْا أَنَّهُمْ كَانُوا مُسْلِمِينَ .

(**ذَرْهُمْ**) أي : اتركهم يا محمد .

–قال ابن عاشور : والأمر بتركهم مستعمل في لازمه وهو قلة جدوى الحرص على إصلاحهم.

وليس مستعملاً في الإذن بمتاركتهم لأن النبي ﷺ مأمور بالدوام على دعائهم.

(**يَأْكُلُواْ**) كما تأكل البهائم .

–قال ابن عطية : وعيد وتهديد .

(**وَيَتَمَتَّعُواْ**) في متع الدنيا الزائلة .

–قال ابن كثير : تهديد شديد لهم وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ .

(**وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ**) أي : يشغلهم أملهم في الدنيا والتزيد منها عن النظر والإيمان بالله ورسوله ، وعَنِ التَّوْبَةِ والإنابة .

قال الألوسي: وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ ويشغلْهم التوقعُ لطولِ الأعمارِ، وبلوغِ الأوطارِ، واستقامةِ الأحوالِ، وأن لا يَلْقَوا إلَّا خيرًا في العاقبةِ والمآلِ .

وقال القرطبي: وحقيقةُ الأملِ: الحرصُ على الدُّنيا، والانكبابُ عليها، والحبُّ لها، والإعراضُ عن الآخرة .

(**فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ**) تهديد ثاني ، أي :(فسوف يعلمون) سوء صنيعهم إذا عاينوا جزاءه وخامة عاقبته أو حقيقة الحال التي ألجأتهم إلى التمني.

قال القرطبي : أي يشغلهم عن الطاعة ، يقال : ألهاه عن كذا أي شغله.

–قال الخازن : وهذا فيه تهديد ووعيد لمن أخذ بحظه من الدنيا ، ولذاتها ولم يأخذ بحظه من طاعة الله ، وقال بعض أهل العلم : ذرهم تهديد و فسوف يعلمون تهديد آخر فمتى يهنأ العيش بين تهديدين ، وفي الآية دليل على أن إيثار التلذذ ، والتنعم في الدنيا يؤدي إلى طول الأمل وليس ذلك من أخلاق المؤمنين.

–قال الشنقيطي : هدد الله تعالى الكفار في هذه الآية الكريمة بأمره نبيه ﷺ أن يتركهم يأكلون ويتمتعون ، فسوف يعلمون حقيقة ما يؤول إليه الأمر من شدة تعذيبهم وإهانتهم. وهددهم هذا النوع من التهديد في مواضع أخر :

كقوله (قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النار) . وقوله (كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُّجْرِمُونَ) وقوله (قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النار) وقوله { فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حتى يُلاَقُواْ يَوْمَهُمُ الذي يُوعَدُونَ) وقوله (فَذَرْهُمْ حتى يُلاَقُواْ يَوْمَهُمُ الذي فِيهِ يُصْعَقُونَ) إلى غير ذلك من الآيات.

–وإنما أمره– سبحانه– بذلك، لعدم الرجاء في صلاحهم، بعد أن مكث فيهم الرسول ﷺ زمنا طويلا، يدعوهم إلى الحق، بأساليب حكيمة.

وفي تقديم الأكل على غيره، إيذان بأن تمتعهم إنما هو من قبيل تمتع البهائم بالمآكل والمشارب. قال تعالى (... وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ) كما أن فيه تعييرا لهم بما تعارفوا عليه من أن الاقتصار في الحياة على إشباع اللذات الجسدية، دون التفات إلى غيرها من مكارم الأخلاق، يدل على سقوط الهمة، وبلادة الطبع.

وفيه خطر طول الأمل .

وهو الحرص على الدنيا والانكباب عليها ، والحبُّ لها والإعراض عن الآخرة.

قال أبو السعود : الأمل التوقعُ لطول الأعمارِ وبلوغِ الأوطار واستقامةِ الأحوال وألا يَلْقَوا في العاقبة والمآل إلا خيراً .

وصدق الحسن البصري – رحمه الله – حيث قال: ما أطال عبدٌ الأملَ إلا ساء العمل .

فهو : داء عضال ومرض مزمن ، ومتى تمكن من القلب فسد مزاجه واشتدّ علاجه ، ولم يفارقه داء ولا نجع فيه دواء ، بل أعيا الأطباء ويئس من برئه الحكماء والعلماء.

وحقيقته : الحرص على الدنيا والانكباب عليها ، والحبُّ لها والإعراض عن الآخرة.

طول الأمل : هو دوام الحرص على الدّنيا، مع الإعراض عن الآخرة.

طول الأمل : أن يُمَنِّيَ الإنسان نفسَه بالبقاء في هذه الدنيا، ولا يتفكر في رحيله عنها.

طول الأمل : أن تحدّث نفسك بطول الحياة، وأنّ بينك وبين الموت مفاوزَ ومسافات..

يتولد من طول الأمل الكسلُ عن الطاعة، والتسويفُ بالتوبة، والرغبةُ في الدنيا، والنسيانُ للآخرة، والقسوة في القلب؛ لأن رقته

وصفاءه إنما يقع بتذكر الموت، والقبر، والثواب، والعقاب، وأهوال يوم القيامة .

وقد جاءت الآيات الكثيرة في ذم طول الأمل:

فطول الأمل : سبب لقسوة القلب .

كمال تعالى (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ).

وقسوة القلب هي من أشد الأمراض فتْكًا بالإنسان، وإن أشدَّ المصائب قبل الموت هو موت القلوب، وموت القلوب إنما يكون بالحرص على الدنيا الفانية، والإعراض عن الباقية، وليعلم الإنسان أنه كلما ازداد حرصًا على الدنيا، ازداد بُعدًا عن الله –تعالى– ويقسو قلبه، ويُطيل الأملَ، فيَكسَل عن العمل وينسى الآخرة.

وطول الأمل : سبب للتكاسل عن الطاعات والأعمال الصالحات .

لقد ذم الله سبحانه وتعالى أعدائه بطول الأمل، إذ أن ذلك كان سبباً في إعراضهم فقال سبحانه مخاطباً نبيه ﷺ فقال سبحانه (ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ).

أي : يشغلهم أملهم في الدنيا والتزيد منها عن النظر والإيمان بالله ورسوله ، وعَنِ التَّوْبَةِ والإنابة .

قال القرطبي : أي يشغلهم عن الطاعة ، يقال : ألهاه عن كذا أي شغله.

فطول الأمل يَشغل عن العمل .

فمن طال أمله ساء عمله ..ومن ألهاه أمله أخزاه عمله.

وهو من صفات اليهود .

كما قال تعالى (وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ).

وهو من علامات الشقاء والهلاك .

روي عن النبي ﷺ أنه قال (نجاة هذه الأمة باليقين والزهد ويهلك آخرها بالبخل والأمل) .

وقال بعض السلف : أربعة من الشقاء جمود العين وقساوة القلب وطول الأمل والحرص على الدنيا .

طول الأمل من كيد الشيطان ووساوسه .

به يَستدرج الإنسانَ ويُغويه ويُنسيه، وهو أول حيلة اتخذها لإغواء الإنسان وإيقاعه في المعصية..

جاء إبليس إلى آدم عليه السلام وهو في الجنة فأقسم له أنه له من الناصحين، وأخبره أنه سيدله على شجرة إن أكل منها لا يفنى عمره ولا يبلى ملكه (فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى) .

وفي آية أخرى (وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ *وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ *فَدَلَّاهُمَا بِغُرُور) .

وإن من عجيب أمر ابن آدم أنه كلما اقترب من أجله طال أمله، وزادت رغبته في الدنيا وحرصه عليها، ولا يسلم من هذا إلا من سلمه الله، وهم قليل.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول (لا يَزَالُ قَلْبُ الْكَبِيرِ شَابًّا فِي اثْنَتَيْنِ: فِي حُبِّ الدُّنْيَا؛ وَطُولِ الأَمَلِ) .

يروى عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قام على درج مسجد دمشق فقال : يا أهل دمشق ، ألا تسمعون من أخ لكم ناصح ، إنّ من كان قبلكم كانوا يجمعون كثيراً ويبنون مشيّداً ويأملون بعيداً ، فأصبح جمعهم بُوراً وبنيانهم قبوراً وأملهم غروراً ، هذه عاد قد ملأت

البلاد أهلاً ومالاً وخيلاً ورجالاً ، فمن يشتري مني اليوم تركتهم بدرهمين .
قال الحسن : ما أطال عبدٌ الأمل إلا أساء العمل.
وصدق ﷺ! فالأمل يكسل عن العمل ويورث التراخي والتواني ، ويعقب التشاغل والتقاعس ، ويخلد إلى الأرض ويميل إلى الهوى.
وهذا أمر قد شوهد بالعِيان فلا يحتاج إلى بيان ولا يُطْلَب صاحبه ببرهان ؛ كما أن قصر الأمل يبعث على العمل ، ويُحيل على المبادرة ، ويحثّ على المسابقة .
قال علي بن أبي طالب : إنما أخشى عليكم اثنتين طول الأمل واتباع الهوى فإن طول الأمل ، ينسي الآخرة ، واتباع الهوى يصد عن الحق.
وقال ابن القيم: إضاعة الوقت من طول الأمل.
وقال الفضيل: إن من الشقاء طول الأمل، وإن من النعيم قصر الأمل.
وقال بعض الحكماء: الجاهل يعتمد على الأمل، والعاقل يعتمد على العمل.
وقال ابن القيم: مفتاح كل شر حب الدنيا وطول الأمل.
وقال الحسن: إياك والتسويف؛ فإنك بيومك ولست بغدك.
وقال معروف الكرخي: نعوذُ بالله من طولِ الأمل، فإنَّه يمنع خيرَ العمل.

علاج طول الأمل :

تذكرْ أنك راحل .

حقيقة لا يجهلها أحد، ولا يُماري فيها أحد، لكنّ كثيرا من الناس عنها غافلون .
قال تعالى (كُلّ نَفْسٍ ذائِقَة الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفوْنَ أجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا مَتَاعُ الْغُرُور) .
الموت باب وكل الناس داخله ***فيا ليت شعري بعد الباب ما الدار.
فليعلمْ مَن طال أمله، وتعلق بالدنيا قلبه، أن الموت يأتي بغتة من غير إنذار ولا إعلام (قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الذِي تَفِرّونَ مِنْهُ فإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ
ثُمَّ تُرَدّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُون) .
فإذا علمتَ أنك عن هذه الدنيا راحل فأعِدّ العدة ليوم رحيلك، واغتنم وجودك في هذه الدنيا بعمَل ما ينفعك بعد رحيلك .

زيارة القبور .

عليك بزيارة المقابر؛ لترى فيها أناسا كنت تعرفهم، كانت لهم من الآمال والأماني مثلُ ما لك الآن، لكن الموت أخذهم بغتة، وفاجأهم من غير استئذان، وحال بينهم وبين أمانيهم وآمالهم...
عن بُرَيْدَة ﷺ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ (نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ القبُورِ، فزُورُوهَا؛ فإنها تذكركم الآخرة) .
وفي رواية (وَلتزِدْكُمْ زِيَارَتُهَا خَيْراً) وفي رواية أخرى (فإنّ في زيارتها عِظة وعبرة) .
زُر المقابرَ وأنتَ من الأحياء لتعود منها بالعبرة والذكرى، قبل أن تزورها محمولا على أكتاف الرجال من غير عودة ولا رَجعة (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ *حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ *كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ *ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ *كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ *لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ *ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ *ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيم) .
روى مسلم في صحيحه عن مطرف عن أبيه عبد الله بن الشخير ﷺ قال (أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُر) قال: يقول

ابن آدم: مالي، مالي. قال: وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت).

لا تعلق قلبك بما هو فان وزائل .

فالدنيا إلى زوال، الدنيا إلى فناء، لا قرار فيها، ولا خلود فيها.. إنما القرار والخلود في الدار الآخرة (بل تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا *وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) .

قال الله تعالى مبيّنا حقيقة هذه الدنيا (إنما مَثلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فاخْتلط بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إذا أَخَذتِ الأَرْضُ زُخْرُفهَا وَازَّيَّنَتْ وَظنَّ أهْلهَا أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَليْهَا أتاهَا أَمْرُنَا ليْلا أوْ نَهَارًا فجَعَلنَاهَا حَصِيدًا كأنْ لمْ تغْنَ بالأَمْسِ كذلِكَ نُفصِّلُ الآيَاتِ لِقوْمٍ يَتفكَّرُون) .

اعتبر واتعِظ بسرعة مرور الأيام والشهور والأعوام .

فقبل أيام قليلة مضتْ وَدّعنا عاما هجريا مضى من أعمارنا، واستقبلنا عاما جديدا بدأت أيامه تمر بسرعة، وفي ذلك من العبر والعظات ما لا يخفى.

فيا عبد الله؛ أما تأملتَ في الأيام وسرعتها؟ أما تفكرت في الشهور وذهابها؟ أما اتعظت بمرور السنوات وانقضائها؟.

إنا لنفرح بالأيام نقطعها ***وكلّ يوم مضى يُدني من الأجل

يقول الحسن البصري رحمه الله: ابنَ آدم؛ إنّما أنت أيّام مجموعة، كلما مضى يوم مضى بعضك.

تنبيه :

وفي هذا: الحث على قصر الأمل .

قال ابن القيم: قصر الأمل: هو العلم بقرب الرحيل، وسرعة انقضاء مدة الحياة، وهو من أنفع الأمور للقلب، فإنه يبعثه على معافصة الأيام، وانتهاز الفرص التي تمر مر السحاب، ومبادرة طيء صحائف الأعمال، ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء، ويحثه على قضاء جهاز سفره، وتدارك الفارط، ويزهده في الدنيا، ويرغبه في الآخرة، فيقوم بقلبه ـــ إذا داوم مطالعة قصر الأمل ـــ شاهد من شواهد اليقين، يريه فناء الدنيا، وسرعة انقضائها، وقلة ما بقي منها، وأنها قد ترحلت مدبرة، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يتصابها صاحبها، وأنها لم يبق منها إلا كما بقي من يوم صارت شمسه على رووس الجبال، ويريه بقاء الآخرة ودوامها، وأنها قد ترحلت مقبلة، وقد جاء أشراطها وعلاماتها، وأنها مع لقائها كمسافر قد خرج صاحبه يتلقاه، فكل منهما يسير إلى الآخر، فيوشك أن يلتقيا سريعاً.

إلى أن قال رحمه الله: ويكفي في قصر الأمل:

قوله تعالى (أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ. ثُمَّ جَاءهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ. مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)

وقوله تعالى (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ).

وقوله تعالى (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا).

وقوله تعالى (قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ. قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ).

وخطب النبي – صلى الله عليه وسلم – أصحابه يوماً والشمس على رووس الجبال فقال: إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه.

ثم قال رحمه الله: وقصر الأمل بناؤه على أمرين:

تيقن زوال الدنيا ومفارقتها.

وتيقن لقاء الآخرة وبقائها ودوامها.

فليس هناك أنفع للقلب من قصر الأمل (وهو العلم بقرب الرحيل).

قيل: من قصر أمله، قل همه، وتنور قلبه.

قَصِّرْ الآمَالَ فِي الدُّنْيَا تَفُزْ ** فَدَلِيل الْعَقْلِ تَقْصِيرُ الأَمَلْ

وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ : (أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ) وَهَذِهِ هِيَ أَعْظَمُ آيَةٍ فِي إِزَالَةِ الدَّاءِ الْعُضَالِ الَّذِي هُوَ طُولُ الْأَمَلِ . كَفَانَا اللَّهُ وَالْمُؤْمِنِينَ شَرَّهُ .

الفوائد :

١-بيان إعجاز القرآن الكريم .

٢=أن القرآن حروف تكلم الله به بحروف خلافاً لأهل البدع .

٣-أن هذا القرآن الذي أعجز العرب من الحروف التي يُرَكّبون منها كلامهم ، ومع ذلك أعجزهم .

٤-أن القرآن مبين ، أي : مظهر للحق ، ولكل ما يحتاج إليه الناس .

٥-أن القرآن مكتوب ، فهو مكتوب في اللوح المحفوظ ، ومكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة ، ومكتوب في الصحف التي بين أيدينا .

٦-أن القرآن الكريم مبين للحق والباطل .

٧-بيان حسرة الكفار على عدم إيمانهم حيث يفوت وقت الأوان .

٨=على المسلم أن يغتنم الدنيا بالأعمال الصالحات .

٩-تهديد الكفار .

١٠-على المسلم أن لا يتشبه بالكفار في أن يكون همه الأكل والشرب والتمتع في الدنيا .

١١-خطر فتنة الدنيا .

١٢-خطر طول الأمل .

١٣-الحرص على قصر الأمل .

١٤-طول الأمل يسد باب العمل .

(وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ (٤) مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٥)) .

[الحجر : ٤-٥] .

(وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا ...) المراد بالقرية أهلها.

والمراد بالكتاب المعلوم: الوقت المحدد في علم الله- تعالى- لهلاكها، شبه بالكتاب لكونه لا يقبل الزيادة أو النقص.

والأجل: مدة الشيء.

والمعنى : وما أهلكنا من قرية من القرى الظالم أهلها، إلا ولهلاكها وقت محدد في علمنا المحيط بكل شيء، ومحال أن تسبق أمة من الأمم أجلها المقدر لها أو تتأخر عنه.

قال تعالى (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ، فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ) .

وقال تعالى (وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَال) .

-قال ابن جرير : وَما أَهْلَكْنا يا محمد مِنْ أهل قَرْيَةٍ من القرى التي أهلكنا أهلها فيما مضى: إِلَّا وَلَها كِتابٌ مَعْلُومٌ أي: أجل

مؤقت ومدة معروفة، لا نهلكهم حتى يبلغوها، فإذا بلغوها أهلكناهم عند ذلك.. دون أن يتقدم هلاكهم عن ذلك أو يتأخر .

–قال ابن كثير : يخبر تَعَالَى إِنَّهُ مَا أَهْلَكَ قَرْيَةً إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهَا وَانْتِهَاءِ أَجَلِهَا، وَإِنَّهُ لَا يؤخر أمة حان هلاكها عن ميقاتهم وَلَا يَتَقَدَّمُونَ عَنْ مُدَّتِهِمْ .

وَهَذَا تَنْبِيهٌ لِأَهْلِ مَكَّةَ وَإِرْشَادٌ لَهُمْ إِلَى الْإِقْلَاعِ عَمَّا هَمْ عليه مِنَ الشِّرْكِ وَالْعِنَادِ وَالْإِلْحَادِ الَّذِي يَسْتَحِقُّونَ بِهِ الهلاك.

–قال ابن عاشور : وإنما ذكر حال القرى التي أهلكت من قبلُ لتذكير هؤلاء بسنّة الله في إمهال الظالمين لئلا يغرّهم ما هم فيه من التمتع فيحسبوا أنهم أفلتوا من الوعيد.

–والآيتان الكريمتان تدلان بوضوح، على أن إمهال الظالمين ليس معناه ترك عقابهم، وإنما هو رحمة من الله بهم لعلهم أن يثوبوا إلى رشدهم، ويسلكوا الطريق القويم ...

فإذا ما لجوا في طغيانهم، حل بهم عقاب الله– تعالى– في الوقت المحدد في علمه– سبحانه–. (الوسيط) .

تنبيه :

الكتاب جاء في القرآن على وجوه:

أحدها: الفرض، قال تعالى (كُتِبَ عَلَيْكُمُ القصاص) (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصيام) (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً).

وثانيها: الحجة والبرهان، قال تعالى (فَأْتُوا بكتابكم إِن كُنتُمْ صادقين) أي برهانكم.

وثالثها: الأجل، قال تعالى (وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كتاب مَّعْلُومٌ) أي أجل.

ورابعها: بمعنى مكاتبة السيد عبده، قال تعالى (والذين يَبْتَغُونَ الكتاب مِمَّا مَلَكَتْ أيمانكم).

الفوائد :

أن الله أهلك كثيراً من القرى بسبب ذنوبهم وكفرهم .

أن الله لا يعجزه شيء .

أن الله لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة .

لأن الله يمهل ولا يهمل .

أن لكل شيء أجل مقدر محدد .

تهديد لكل كافر أن عذاب الله إذا جاء لا يؤخر .

أن هذا الأجل مقدر حسب حكمة الله تعالى البالغة .

(وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَا كَانُواْ إِذًا مُّنظَرِينَ (٨)) .

[الحجر : ٦–٨] .

(وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ) وقال مشركو مكة لمحمد على سبيل الاستهزاءِ والسخرية –لا على سبيل الاعتراف– قالوا له: يا أيها الذى نزل عليه الذكر من السماء كما تزعم، إنك لمجنون بسبب هذه الدعوى، فإنها أكبر من قدره في تقديرهم الخاطئ، حيث إنهم زعموا أن النبوة تتبع الرياسة الدنيوية، إذ قالوا (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) والقريتان هما مكة والطائف، والرجل المقصود في مكة هو الوليد بن المغيرة المخزومي، والمقصود في الطائف حَبيبُ بن

عَمْرو بن عُمَير الثقفي كما روي عن ابن عباس. وقيل: عتبة ابن ربيعة وكنانة بن عبد ياليل في الطائف –كما روى عن مجاهد، وقيل غير ذلك–.

والذكر في اللغة له عدة معان منها: الشرف، وقد أُطلق هنا على القرآن كما أطلق عليه في نحو قوله تعالى في سورة الزخرف (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ) وقوله سبحانه في سورة الحجر (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) لعلو شرفه، وقد عبر المشركون عنه بلفظ الذكر مجاراة للنص القرآني على سبيل الاستخفاف.

–قال الشنقيطي : قد يقال في هذه الآية الكريمة كيف يقرون بأنه أنزل إليه الذكر وينسبونه للجنون مع ذلك ؟

والجواب : أن قولهم يا أيها الذي نزل عليه الذكر يعنون في زعمه تهكماً منهم به ، ويوضح هذا المعنى ورود مثله من الكفار متهكمين بالرسل عليهم صلوات الله وسلامه في مواضع أخر كقوله تعالى عن فرعون مع موسى قال (قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ) وقوله عن قوم شعيب (إِنَّكَ لأَنتَ الحليم الرشيد) .

(**لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**) أي : هلا جئتنا بالملائكة لتشهد لك بالرسالة ، إن كنت صادقاً في دعواك أنك رسول الله !

–قال الشنقيطي : أن الكفار طلبوا من النَّبي ﷺ طلب تخصيص أن يأتيهم بالملائكة ليكون إتيان الملائكة معه دليلاً على صدقه أنه رسول الله ﷺ ، وبين طلب الكفار هذا في آيات أخر :

كقوله عن فرعون مع موسى (فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ الملائكة مُقْتَرِنِينَ) .

وقوله (وَقَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الملائكة أَوْ نرى رَبَّنَا لَقَدِ استكبروا في أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً) .

وقوله (وَقَالُواْ لولا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأمر) .

وقوله (لولا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً) .

وقوله (أَوْ تَأْتِيَ بالله والملائكة قَبِيلاً) .

–قال السعدي : وهذا من أعظم الظلم والجهل ، أما الظلم فظاهر فإن هذا تجرؤ على الله وتعنت بتعيين الآيات التي لم يخترها وحصل المقصود والبرهان بدونها من الآيات الكثيرة الدالة على صحة ما جاء به، وأما الجهل، فإنهم جهلوا مصلحتهم من مضرتهم، فليس في إنزال الملائكة، خير لهم بل لا ينزل الله الملائكة إلا بالحق الذي لا إمهال على من لم يتبعه وينقد له.

(**مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالحَقِّ**) أي : ما ننزل ملائكتنا إلا بالعذاب لمن أردنا إهلاكه .

قال أبو حيان: الحَقُّ هنا: العذابُ، قاله الحسنُ، أو الرِّسالةُ، قاله مجاهدٌ، أو قبضُ الأرواحِ عندَ الموتِ، قاله ابنُ السائبِ، أو القرآنُ، ذكَره الماوردي. وقال الزمخشري: إلَّا تنزُّلًا مُلتَبِسًا بالحكمةِ والمصلحةِ، ولا حكمةَ في أن تأتيَكم عِيانًا تشاهِدونَهم، ويشهدونَ لكم بصدقِ النبيِّ ﷺ؛ لأنَّكم حينئذٍ مصدِّقونَ عن اضطرارٍ. وقال ابنُ عطيةَ: والظاهرُ أنَّ معناها: كما يجِبُ ويحِقُّ مِن الوحيِ والمنافعِ التي أرادَها الله تعالى لعبادِه، لا على اقتراحِ كافرٍ، ولا باختيارِ مُعترِض .

وقال السمعاني: الحقُّ الَّذي تنزِلُ به الملائكةُ هو الوحيُ، وقبضُ أرواحِ العبادِ، وإهلاكُ الكفَّارِ، وكتابة الأعمالِ، وما أشبهَ ذلك.

(**وَمَا كَانُواْ إِذًا مُّنظَرِينَ**) أي: ولو نزَّلنا الملائِكةَ على الكُفَّارِ– كما اقترَحوا– فرَأَوا الملائِكةَ عِيانًا ولم يُؤمِنوا؛ فلن يُمهِلَهم اللهُ، وسيُعَذِّبُهم في الحالِ .

ومِمَّن اختار هذا المعنى : ابنُ جريرٍ ، وابنُ جُزي ، والخازنُ، والسعدي.

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: السُّدِّيُّ .

أي : وفي هذه الحالة لا إمهال لهم ولا تأجيل ، والغرض أن عادة الله تعالى قد جرت في خلقه ، أنه لا ينزل الملائكة إلا لمن يريد

إهلاكهم بعذاب الاستئصال ، وهو لا يريد ذلك مع أمته ، لعلمه تعالى أنه سيخرج من أصلابهم من يعبد الله ، ففيه رد عليهم فيما اقترحوا .

–قال السعدي : (وَمَا كَانُوا إِذًا) أي: حين تنزل الملائكة، إن لم يؤمنوا، ولن يؤمنوا بـ (مُنْظَرِينَ) أي: بمهملين، فصار طلبهم لإنزال الملائكة تعجيلا لأنفسهم بالهلاك والدمار، فإن الإيمان ليس في أيديهم وإنما هو بيد الله، (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون) ويكفيهم من الآيات إن كانوا صادقين، هذا القرآن العظيم .

وقيل المعنى: ولو نزَّلنا الملائكةَ على الكفَّارِ بالعذابِ، فلن يُؤخِّرَ الله عنهم العذابَ حينَ نزولِه، ولن تُقبَلَ لهم توبةٌ.

وممن اختار هذا المعنى: القرطبي ، وابنُ عاشور ، والشنقيطي.

–قال الشنقيطي : بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه ما ينزل الملائكة إلا بالحق أي بالوحي وقيل بالعذاب .

وقال الزمخشري : " إلا تنزيلاً متلبساً بالحكمة والمصلحة ولا حكمة في أن تأتيكم الملائكة عياناً تشاهدونهم ويشهدون لكم بصدق النَّبي ﷺ لأنكم حينئذ مصدقون عن اضطرار " قال : " ومثل هذا قوله تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بالحق) .

وبين تعالى في هذه الآية الكريمة أنهم لو نزلت عليهم الملائكة ، ما كانوا منظرين وذلك في قوله (وَمَا كَانُوْاْ إِذاً مُّنظَرِينَ) وتقدير المعنى ولو نزلت عليكم الملائكة ما كانوا منظرين أي ممهلين بتأخير العذاب عنهم .

وقد بين هذا المعنى في مواضع أخر كقوله (يَوْمَ يَرَوْنَ الملائكة لاَ بشرى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ) الآية وقوله (وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأمر ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ) .   (أضواء البيان) .

الفوائد :

١. شدة كفر كفار مكة .
٢. اتهام الرسول ﷺ بالجنون .
٣. هذه عادة الأمم الكافرة تتهم رسلها ودعاتها بالجنون .
٤. تسلية لكل داعية إلى الحق .
٥. تعنتهم حيث يطلبون أدلة على صدق النبي ﷺ تعنتاً ، وإلا فقد جاءهم بالآيات الواضحات والحجج الباهرات .
٦. أن الله يمهل الكفار حيث لا يعاجلهم بالعقوبة ولا ما طلبوا لعلهم يهتدون .
٧. أن عذاب الله إذا جاء لا يؤخر ولا هم ينظرون .
٨. تهديد لكل كافر بأن عذاب الله إذا جاءهم لا ينظرون .
٩. إثبات علو الله تعالى .

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)) .

[الحجر : ٩] .

(**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**) أي : إنا نحن –رب السموات والأرض– نزلنا القرآن الذي أنكروا أنه وحي من عندي ، نزلناه عليك، وإنا نحن بِعِظَمِ شأننا لحافظون هذا القرآن من التغيير والتبديل والضياع، ليبقى آية ديننا ودستور شريعتنا ما بقى

الزمان، فلن يعتريه تحريف ولا تبديل ولا زيادة ولا نقصان.

جاء في (التفسير الوسيط) (لحافظون) من كل ما يقدح فيه، كالتحريف والتبديل، والزيادة والنقصان والتناقض والاختلاف، ولحافظون له بالإعجاز، فلا يقدر أحد على معارضته أو على الإتيان بسورة من مثله .

قال ابنُ الجوزي : الذِّكرُ: القرآنُ، في قولِ جميعِ المفسِّرين .

وقال الرازي: في تسميةِ القرآنِ بالذِّكرِ وجوهٌ:

أحدُها: أنَّه كتابٌ فيه ذِكْرُ ما يحتاجُ إليه النَّاسُ مِنْ أمرِ دينِهم ودُنْياهم.

وثانيها: أنَّه يذكُرُ أنواعَ آلاءِ اللَّه تعالَى ونعمائِه، ففيه التَّذكيرُ والمواعِظُ.

وثالثُها: فيه الذِّكرُ والشَّرفُ لك ولقومِكَ على ما قال (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ) .

فائدة : ١

أن هذا القرآن العظيم محفوظ بحفظ الله تعالى له .

وقد حقَّق وعده في حفظ كتابه، ومن مظاهر ذلك:

أ– أن ما أصاب المسلمين من ضَعف ومن فتن، ومن هزائم، وعجزوا معها عن حفظ أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، هذا الذي أصابهم في مختلف الأزمنة والأمكنة، لم يكن له أيُّ أثر على قداسة القرآن الكريم، وعلى صيانته من أي تحريف.

ومن أسباب هذه الصيانة أن الله تعالى قيَّض له في كل زمان ومكان من أبناء هذه الأمة – مَن حفِظه عن ظهر قلب، فاستقرَّ بين الأمة بمسمع من النبي ﷺ، وصار حفاظه بالغين عدد التواتر في كل مصر وفي كل عصر.

ب–أن أعداء هذا الدين – سواء أكانوا من الفرق الضالة المنتسبة للإسلام، أم من غيرهم – امتدت أيديهم الأثيمة إلى أحاديث النبي ﷺ، فأدخلوا فيها ما ليس منها، وبذل العلماء العدول الضابطون ما بذلوا من جهود لتنقية السنة النبوية مما فعله هؤلاء الأعداء، ولكن هؤلاء الأعداء لم يقدروا على شيء واحد، وهو إحداث شيء في هذا القرآن، مع أنهم وأشباههم في الضلال، قد أحدثوا ما أحدثوا في الكتب السماوية السابقة.

والخلاصة، أن سلامة القرآن من أي تحريف – رغم حرص الأعداء على تحريفه، ورغم ما أصاب المسلمين من أحداث جسام، ورغم تطاول القرون والدهور – دليل ساطع على أن هناك قوة خارجة عن قوة البشر قد تولَّت حفظ هذا القرآن، وهذه القوة هي قوة الله عز وجل، ولا يماري في ذلك إلا الجاحد الجهول.

فائدة : ٢

أن من أسماء القرآن الذكر .

وللقرآن أسماء :

أولاً: الفرقان.

كما قال تعالى (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً) وقال تعالى (وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ).

وسمي بذلك: قيل: لأنه يفرق بين الحق والباطل، والخير والشر، وقيل: لأنه نزل متفرقاً في حين أن سائر الكتب نزلت جملة واحدة، وقيل: الفرقان هو النجاة، وذلك لأن الخلق في ظلمات الضلالات فبالقرآن وجدوا النجاة، وكل هذه الأقوال صحيحة.

ثانياً: القرآن.

كما قال تعالى (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ) .

وقال تعالى (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً).

ثالثاً: الكتاب .

كما قال تعالى (ذلك الكتاب لا ريب فيه) .

وسمي القرآن كتاباً:

أولاً: لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ: كما قال تعالى (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ).

ثانياً: لأنه مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة: قال تعالى (فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ. فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ. مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ).

ثالثاً: لأنه مكتوب في الصحف التي بأيدينا، ونقرؤه من هذه الكتب.

رابعاً: الذكر.

كما قال تعالى (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) .

وقال تعالى (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ).

–قال ابن جرير في وجه تسميته بالذكر: إنه محتمل معنيين:

أحدهما: أنه ذكر من الله جل ذكره، ذكّر به عباده، فعرفهم فيه حدوده وفرائضه، وسائر ما أودعه من حكمه.

والآخر: أنه ذكر وشرف وفخر لمن آمن به وصدق بما فيه، كما قال جل ثناؤه (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ) يعني أنه شرف به شرف له ولقومه.

–وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: وسمي القرآن ذكراً:

أولاً: لما فيه من التذكير والموعظة.

ثانياً: لما فيه من الأخبار الماضية، وقصص الأنبياء الغابرة المفيدة للقلب، كما قال تعالى (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الأَلْبَابِ).

ثالثاً: لما فيه من ذكر أحوال الناس في الجزاء يوم القيامة ، وأنهم ينقسمون إلى: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

رابعاً: لما فيه من ذكر العرب ورفع شأنهم ، كما قال تعالى (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ).

خامساً: ذكر شريعة الله وأحكامه من الأوامر والنواهي.

الفوائد :

عظمة هذا القرآن الكريم .

أن القرآن منزل غير مخلوق .

إثبات علو الله تعالى .

إعجاز هذا القرآن العظيم .

حفظ الله تعالى لهذا القرآن من تبديل أو تغيير أو تناقض .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ (١١) كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ (١٣))
[الحجر : ١٠-١٣] .

(**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ**) الخطاب للنبي ﷺ ، أي : ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك يا محمد .

(**فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ**) الشيَع جمع شيعة وهي الطائفة من الناس ، أي : في فرق الأولين وطوائفهم وجماعاتهم .

(**وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ**) أيّ رسول .

(**إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ**) أي : إلا أن قابلت كل فرقة منهم رسولها بالسخرية والاستهزاء كما قابلك سفهاء قومك .

وهذه تسلية للنبي ﷺ ، والمعنى : كما فعل بك هؤلاء المشركون ، فكذلك فعل بمن قبلك من الرسل ، فلا تحزن على سخريتهم واستهزائهم بك .

كما قال تعالى (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون) .

وقال سُبحانه (يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون) .

(**كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ**) الضمير المنصوب في (نسلكه) يعود إلى القرآن الكريم الذي سبق الحديث عنه.

والمراد بالمجرمين في قوله فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ مشركو قريش ومن لف لفهم.

والمعنى: كما سلكنا كتب الرسل السابقين في قلوب أولئك المستهزئين نسلك القرآن في قلوب هؤلاء المجرمين من قومك يا محمد، بأن نجعلهم يسمعونه ويفهمونه ويدركون خصائصه دون أن يستقر في قلوبهم استقرار تصديق وإذعان لاستيلاء الجحود والعناد والحسد عليهم. (لا يُؤْمِنُونَ بِهِ) أي : أدخلنا القرآن في قلوبهم ففهموه، ولكنهم لا يؤمنون به عناداً وجحوداً .

وعلى هذا التفسير يكون الضمير في (نَسْلُكُهُ) وفي (بِهِ) يعودان إلى القرآن الكريم، الذي سبق الحديث عنه في قوله- تعالى- إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ. (التفسير الوسيط) .

وممَّن اختار هذا المعنى المذكورَ أنَّ الضميرَ في قولِه تعالى (نَسْلُكُهُ) عائدٌ على القرآنِ: الزمخشري ، والرازي ، وابنُ القيم ، والشوكاني ، والبقاعي ، وابنُ عاشور.

قال ابن عاشور : أي هكذا نولجُ القرآنَ في عُقولِ المشركينَ؛ فإنَّهم يَسمَعونه ويفهمونَه؛ إذ هو من كلامِهم، ويُدرِكونَ خصائِصَه.

وقيل المعنى : أي كذلك نسلك الباطل والضلال والاستهزاء بأنبياء الله في قلوب المجرمين ، كما سلكناه وأدخلناه في قلوب أولئك المستهزئين (لا يؤمنون به) أي لا يؤمنون بهذا القرآن .

وممَّن اختار هذا القول : ابنُ جريرٍ ، والبغوي ، وابنُ الجوزي ، والقرطبي ، وابنُ كثير ، والسعدي .

قال النحاسُ: هذا القَولُ [أي: نسلكُ التكذيبَ] هو الذي عليه أهلُ التَّفسيرِ وأهلُ اللُّغةِ، إلَّا مَن شَذَّ منهم .

(**وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ**) تهديد لهؤلاء المكذبين من كفار مكة ومن سار على شاكلتهم، وتكملة للتسلية لرسول الله ﷺ .

أي : وقد مضتْ عادةُ اللهِ – التي لا تتخلف – بإهلاكِ الكفَّارِ مِن الأُممِ الماضيةِ ممن كَذَّبَ الرُّسلَ .

كما قال تعالى :كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَاب) .

وأَهل مكة إِن استمروا على تكذيبهم، فسوف يحل بهم مثل ما حل ممن سبقهم جريا على سنة الله في المكذبين.

وممن ذهب إلى هذا المعنى المذكور: البغوي ، والقرطبي، وابن كثير، والسعدي.

وقيل: المعنى: وقد مَضَت سنَّةُ الأَوَّلينَ بتكذيبِ رُسُلِ الله، وهؤلاء المشرِكونَ يقتَفونَ آثارَهم.

وممن اختار هذا المعنى: الزجاج ، والنحاس ، والواحدي.

الفوائد :

١. إثبات رسالة النبي ﷺ .

٢. إثبات الرسل .

٣. أن النبي ﷺ خاتم النبي ﷺ .

٤. أن الله أرسل كثيراً من الرسل .

٥. تسلية للنبي ﷺ .

٦. سنة استهزاء الكفار بالأنبياء .

٧. أن الاستهزاء من سنن الكفار .

٨. تسلية لكل داعية إلى الحق .

٩. أن من طبع الله على قلبه فلا يؤمن .

١٠. سنة الله في هلاك المكذبين .

١١. أن الله لا يعجزه شيء .

وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاء فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (١٥)) .

[الحجر : ١٤-١٥) .

(**وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاء فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ**) أي : ولو فتحنا على كفار مكة بابًا من السماءِ، ومكناهم من الصعود فيه، فصاروا يعرجون ويصعدون فيه بآلة أَو بغيرها، وهم يرون ما في السماءِ من الملائكة والعجائب في وضوح واستبانة.

–قال ابن كثير : يخبر تعالى عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق أنه لو فتح لهم باباً من السماء فجعلوا يصعدون فيه لما صدقوا بذلك .

(**لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا**) أي لقالوا – لفرطِ مكابرتهم وعنادهم – إنما سُدت أبصارنا وخُدعت بهذا الارتقاء والصعود .

(**بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ**) أي : سحرنا محمد وخيل إلينا ذلك ، وما هو إلا سحر مبين .

قال ابنُ الجوزي: في المشارِ إليهم بهذا الصعودِ قولانِ:

أحدهما: أنَّهم الملائكةُ .

قاله ابنُ عبَّاس والضحَّاكُ .

فالمعنى: لو كُشِف عن أبصارِ هؤلاء فرَأَوا بابًا مفتوحًا في السماءِ، والملائكةُ تصعَدُ فيه؛ لَمَا آمنوا به.

والثاني: أنَّهم المشركونَ، قاله الحسنُ وقتادةُ، فيكون المعنى: لو وصَّلْناهم إلى صعودِ السَّماءِ لم يستشعِروا إلَّا الكفرَ؛ لعنادِهم . (زاد المسير) .

وممن ذهَب إلى أنهم المشركون : الزمخشري، والقرطبي، وابنُ جزي، وأبو حيان، وابن كثير، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي، وابن عاشور.

قال الرازي : لو ظل المشركون يصعدون في تلك المعارج ، وينظرون إلى ملكوت الله تعالى وقدرته وسلطانه ، والى عبادة الملائكة الذين هم من خشيته مشفقون ، لشكوا في تلك الروية ، وبقوا مصرين على الكفر والعناد كما جحدوا سائر المعجزات من انشقاق القمر ، والقرآن المعجز الذي لا يستطيع الجن والإنس أن يأتوا بمثله .

وقال ابن كثير : يخبر تعالى عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق أنه لو فتح لهم باباً من السماء فجعلوا يصعدون فيه لما صدقوا بذلك .

وممَّن ذهب إلى أنَّ الضَّميرَ في فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ عائدٌ على الملائكة:

مقاتلُ بنُ سليمانَ، والفرَّاءُ، والواحدي، والثعلبي، والبغوي .

الفوائد :

١. شد كفر وعتو هؤلاء الكفار .

٢. أن من لم يكتب الله له الهداية فلن يهتدي ولو رأى من الآيات العظيمة .

٣. سؤال الله الهداية .

(وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ (١٨)) .

[الحجر : ١٦-١٨] .

-قال القرطبي : لما ذكر سبحانه كفر الكافرين، وعجز أصنامهم، ذكر كمال قدرته ليستدل بها على وحدانيته.

(وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجًا) أي : ولقد خلقنا وأبدعنا منازل وطرقاً في السماء، تسير فيها الكواكب بقدرتنا، وإرادتنا، وحكمتنا، دون خلل أو اضطراب.

كما قال تعالى (تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا) .

وَقَال تعالى (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ) .

-قال الشنقيطي : وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْمُرَادِ بِالْبُرُوجِ فِي الْآيَاتِ الْمَذْكُورَةِ :

فَقَالَ بَعْضُهُمْ : الْبُرُوجُ : الْكَوَاكِبُ ، وَمِمَّنْ رُوِيَ عَنْهُ هَذَا الْقَوْلُ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ .

وَعَنْ أَبِي صَالِحٍ : أَنَّهَا الْكَوَاكِبُ الْعِظَامُ .

وَقِيلَ : هِيَ قُصُورٌ فِي السَّمَاءِ عَلَيْهَا الْحَرَسُ . وَمِمَّنْ قَالَ بِهِ عَطِيَّةُ .

وَقِيلَ : هِيَ مَنَازِلُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ . وَأَسْمَاءُ هَذِهِ الْبُرُوجِ : الْحَمَلُ وَالثَّوْرُ وَالْجَوْزَاءُ وَالسَّرَطَانُ وَالْأَسَدُ وَالسُّنْبُلَةُ وَالْمِيزَانُ وَالْعَقْرَبُ وَالْقَوْسُ وَالْجَدْيُ وَالدَّلْوُ وَالْحُوتُ .

قَالَ مُقَيِّدُهُ – عَفَا اللَّهُ عَنْهُ – : أَطْلَقَ تَعَالَى فِي (سُورَةِ النِّسَاءِ) الْبُرُوجَ عَلَى الْقُصُورِ الْحَصِينَةِ فِي قَوْلِهِ (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ) وَمَرْجِعُ الْأَقْوَالِ كُلِّهَا إِلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ . لِأَنَّ أَصْلَ الْبُرُوجِ فِي اللُّغَةِ الظُّهُورُ ، وَمِنْهُ تَبَرُّجُ الْمَرْأَةِ بِإِظْهَارِ زِينَتِهَا ، فَالْكَوَاكِبُ ظَاهِرَةٌ ، وَالْقُصُورُ ظَاهِرَةٌ ، وَمَنَازِلُ الْقَمَرِ وَالشَّمْسِ كَالْقُصُورِ ، بِجَامِعِ أَنَّ الْكُلَّ مَحَلٌّ يُنْزَلُ فِيهِ ، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى .

(**وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ**) الضمير في قوله (وَزَيَّنَّاها ..) يعود إلى السماء ، أي : وزينا السماء وجمّلناها وحسناها للناظرين .
وقدَ بَيَّنَ تعالى أنه زَيَّنَهَا بِالنُّجُومِ ، وَأَنَّهَا السَّمَاءُ الدُّنْيَا :
كَقَوْلِهِ (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ) .
وَقَوْلِهِ (إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ) .
-خلق الله هذه النجوم لحكم:
الأولى: زينة للسماء.
قال تعالى (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ).
وفي هذه الآية إشارة إلى أن النجوم في السماء الدنيا.
وقال تعالى (إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ . وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ . لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ).
وقال تعالى (وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا).
الثانية: رجوماً للشياطين ، أي لشياطين الجن الذين يسترقون السمع.
كما قال تعالى (وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ).
قال تعالى (وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً).
الثالثة: علامات يهتدى بها.
قال تعالى (وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ).
فقوله (علامات) أي دلالات على الجهات والبلدان ونحو ذلك ، كما قال تعالى (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر).
(**وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ**) صَرَّحَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ حَفِظَ السَّمَاءَ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ .
وَبَيَّنَ هَذَا الْمَعْنَى فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ :
كَقَوْلِهِ (وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ) .
وَقَوْلِهِ (وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ) .
وَقَوْلِهِ (فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا) .
وَقَوْلِهِ : (إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ) .
والشيطان : مشتق على الصحيح من شَطَن أي بعُد ، فالشيطان بعيد عن الخير وطباع البشر وعن كل معروف ، وقيل : مشتق من شاط ، لأنه مخلوق من نار ، **والأول أصح** .
والرجيم : صفة للشيطان ، فالرجيم فعيل بمعنى مفعول أي : إنه مرجوم مطرود عن الخير كله .
والرجم أصله الرمي بالحجارة ، والشيطان مرجوم بالقول وبالفعل :
بالقول : بالسب والشتم والذم ويلحق به كل قول قبيح .
وبالفعل : أن رجمه الله أي طرده وأبعده من رحمته ، ويرجم بالشهب كما قال تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين) وقال تعالى (إنا زينا السماء الدنيا بزينةٍ الكواكب وحفظاً من كل شيطان مارد لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحوراً ولهم عذاب واصب إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب) .

وقيل : رجيم بمعنى راجم لأنه يرجم الناس بالوساوس . **قال ابن كثير** : والأول أشهر وأصح . [تفسير ابن كثير]

(**إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ**) إلا من اختلس السمع مِن كلام أهل الملأ الأعلى في بعض الأوقات، فأدركه ولحقه كوكب مضيء يحرقه ، وقد يُلْقي الشيطان إلى وليه بعض ما استرقَه قبل أن يحرقه الشهاب.

قال ابنُ الجوزي: (شِهَابٌ مُبِينٌ) قال ابنُ قُتيبةَ: كوكبٌ مُضيءٌ. وقيل: مُبِينٌ بمعنى: ظاهِر يراه أهلُ الأرض. وإنما يَسترِقُ الشيطانُ ما يكونُ مِن أخبارِ الأرض، فأمَّا وحيُ الله عزَّ وجلَّ فقد صانه عنهم . (زاد المسير) .

ممن اختار أنَّ مُبِينٌ بمعنى: ظاهر: الواحدي، والزمخشري، والبيضاوي، وأبو حيان، والشوكاني، والقاسمي، وابنُ عاشور

وممن اختار أن مُبِينٌ بمعنى مضيء: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ أبي زمنين .

وذهَب ابنُ جرير إلى أنَّ معنى مُبِينٌ أي: يبينُ أثرُه فيه إمَّا بإخبالِه وإفسادِه، وإما بإحراقِهِ.

قال السعدي: (فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ) أي: بيّنٌ منيرٌ يقتلُه أو يخبلُه .

قال ابن كثير : وَجَعَلَ الشُّهُبَ حَرَسًا لَهَا مِنْ مَرَدَةِ الشَّيَاطِينِ لِئَلَّا يَسْمَعُوا إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى، فمن تمرد وتقدم منهم لِاسْتِرَاقِ السَّمْعِ جَاءَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ فَأَتْلَفَهُ، فَرُبَّمَا يَكُونُ قَدْ أَلْقَى الْكَلِمَةَ الَّتِي سَمِعَهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ الشِّهَابُ إِلَى الَّذِي هُوَ دُونَهُ فَيَأْخُذُهَا الْآخَرُ وَيَأْتِي بِهَا إِلَى وَلِيِّهِ، كَمَا جَاءَ مُصَرَّحًا بِهِ فِي الصَّحِيحِ.

كَمَا قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ (إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ» قَالَ عَلِيٌّ وَقَالَ غَيْرُهُ صَفْوَانٍ يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ ربكم؟ قالوا: للذي قَالَ الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُو السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُو السَّمْعِ هَكَذَا وَاحِدٌ فَوْقَ آخَرَ، ووصف سفيان بيده، وفرج بَيْنَ أَصَابِعِ يَدِهِ الْيُمْنَى، نَصَبَهَا بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ الْمُسْتَمِعَ قَبْلَ أَنْ يَرْمِيَ بِهَا إِلَى صَاحِبِهِ فَيُحْرِقَهُ، وَرُبَّمَا لَمْ يُدْرِكْهُ حَتَّى يَرْمِيَ بِهَا إِلَى الَّذِي يَلِيهِ إِلَى الَّذِي هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ حَتَّى يُلْقُوهَا إِلَى الْأَرْضِ، وَرُبَّمَا قَالَ سُفْيَانُ: حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى الْأَرْضِ فَتُلْقَى عَلَى فَمِ السَّاحِرِ أَوِ الكاهن فيكذب معها مائة كذبة فيصدق، فَيَقُولُونَ: أَلَمْ يُخْبِرْنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا يَكُونُ كَذَا وَكَذَا، فَوَجَدْنَاهُ حَقًّا لِلْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ) . (التفسير) .

وإذا استمع الشياطين إلى شيء ليس بوحي، فإنهم يقذفونه إلى الكهنة في أسرع من طرفة عين، ثم تتبعهم الشهب فتقتلهم أو تخبلهم.

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى (إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ. وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ. لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ. دُحُوراً وَلَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ. إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ) .

قال بعض العلماء ما ملخصه: والمقصود منع الشياطين من الاطلاع على ما أراد الله عدم اطلاعهم عليه.. وربما استدرج الله- تعالى- الشياطين وأولياءهم، فلم يمنع الشياطين من استراق شيء قليل يلقونه إلى الكهان فلما أراد- سبحانه- عصمة الوحي منعهم من ذلك بتاتاً..

وفي سورة الجن دلالة على أن المنع الشديد من استراق السمع كان بعد البعثة النبوية، وبعد نزول القرآن، إحكاما لحفظ الوحي من أن يلتبس على الناس بالكهانة..

قال تعالى (وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً. وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ، فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً) .

وعلى ذلك يكون ما جاء في بعض الأحاديث من استراق الجن السمع- وصفاً للكهانة السابقة، ويكون قوله ﷺ (ليسوا بشيء ...) وصفاً لآخر أمرهم .

الفوائد :

١. من أعظم مخلوقات الله السماء .

٢. أن الله جعل في السماء العظيمة البروج والكواكب .

٣. الترغيب في النظر في زينة السماء .

٤. عظم قدرة الله تعالى .

٥. من عجائب قدرة الله : السماء وما فيها من الجمال والقوة والحسن .

٦. أن النجوم زينة للسماء .

٧. حفظ السماء من كل شيطان رجيم .

(وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠)) .

[الحجر : ١٩-٢٠] .

(**وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا**) أي : ومن الأدلة- أيضاً- على وحدانيتنا وقدرتنا، أننا مددنا الأرض وفرشناها وبسطناها، لتتيسر لكم الحياة عليها .

كما قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ).

وقال تعالى (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً).

وقال تعالى (وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ) .

وقال تعالى (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً) والمراد بالقرار: أنها لا تميد بساكنيها، أي لا تضطرب كما قال تعالى (وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً)

(قراراً) مستقراً بالدحو والتسوية. (مددناها) بسطناها ووسعناها (مهداً) كالفراش الذي يُوطَّأُ للصبي.

وهذه من أعظم النعم أن جعل سبحانه الأرض فراشاً ومهاداً.

-**قال القرطبي** : هذا من نعمه أيضاً ، ومما يدل على كمال قدرته.

- **قال ابن القيم**: وإذا نظرت إلى هذه الأرض وكيف خلقت؟ رأيتها من أعظم آيات فاطرها وبديعها، خلقها سبحانه فراشاً ومهاداً وذللها لعباده.

فيه دليل على أنه لو كانت الأرض غير مبسوطة، كأن تكون غير مستقرة أو مضطربة لكان في ذلك مشقة وتعب.

(**وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ**) أي : وأننا- أيضاً وضعنا فيها جبالاً ثوابت راسخات تمسكها عن الاضطراب وعن أن تميد بكم.

قال تعالى (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا، وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ) .

وقال تعالى (وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُون).

وقال تعالى (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً) .

وقال تعالى (وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتاً) .

وقال تعالى (وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا) أي : ثبت الجبال في الأرض ، فهي مثبتة للأرض .

(**وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ**) أي : وأنبتنا في الأرض من كل شيء من أنواع النباتات من الزروع والحبوب والثمار

والفواكه وسائر النباتات متاعاً للعباد وأنعامهم .
كما قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ).
وقال تعالى (وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا).
وقال تعالى (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ).
وقال تعالى (وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ) .

-**قال ابن الجوزي** : قوله تعالى (وأنبتنا فيها) في المشار إليها قولان :

أحدهما : أنها الأرض ، قاله الأكثرون.

والثاني : الجبال ، قاله الفراء.

(**مَّوْزُونٍ**) أي : مقدر بقدر معلوم مضبوط .

كما قال تعالى (وما ننزله إلا بقدر معلوم) .

-**قال ابن عطية** : قال الجمهور : معناه مقدر محرر بقصد وإرادة ، فالوزن – على هذا – مستعار .

-**قال ابن عاشور** : والموزون : مستعار للمقدّر المضبوط.

تنبيه :

– هذا من براهين البعث، فإحياء الأرض بعد موتها من أعظم الأدلة على البعث بعد الموت.
قال تعالى (ومن آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأرض خَاشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ إِنَّ الذي أَحْيَاهَا لَمُحْىِ الموتى إِنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .
وقال تعالى (وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ الخروج)، يعني: خروجكم من قبوركم أحياء بعد أن كنتم عظاماً رميما.
وقوله (وَيُحْيِي الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ)، وقوله تعالى (حتى إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ المآء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثمرات كذلك نُخْرِجُ الموتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)، إلى غير ذلك من الآيات. (أضواء البيان).
– **قال القرطبي**: ودلّت هذه الآية على أن الله تعالى أغنى الإنسان عن كل مخلوق؛ ولهذا قال عليه السلام مشيراً إلى هذا المعنى (والله لأنْ يأخذ أحدُكم حَبْلَه فَيَحْتطِبَ على ظهره خير له من أن يسأل أحداً أعطاه أو منعه) أخرجه مسلم.
ويدخل في معنى الاحتطاب جميع الأشغال من الصنائع وغيرها؛ فمن أحوج نفسه إلى بشر مثله بسبب الحرص والأمل والرغبة في زُخرف الدنيا فقد أخذ بطرف من جعل لله نِدًّا.
(**وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ**) أي : وجعلنا وخلقنا وأوجدنا لكم في الأرض ما تعيشون وتحيون به وتصلح أحوالكم مما احتوت عليه الأرض من معادن وحجارة وما تخرجه من نبات وغير ذلك .

-**قال البقاعي** : جمع معيشة ، وهي ما يحصل به العيش من المطاعم والملابس والمعادن وغيره .

-**قال ابن الجوزي** : والمعنى : جعلنا لكم فيها أرزاقاً تعيشون بها.

-**وقال الخازن** : جمع معيشة ، وهو ما يعيش به الإنسان مدة حياته في الدنيا من المطاعم والمشارب والملابس ونحو ذلك .

(**وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ**) أي : وجعلنا لكم فيها– أيضاً – من لستم له برازقين من العيال والخدم والدواب ...
وإنما الرازق لهم هو الله– تعالى– رب العالمين، إذ ما من دابة في الأرض إلا على الله وحده رزقها. وما يزعمه الجاهلون من أنهم هم الرازقون لغيرهم، هو لون من الغرور والافتراء، لأن الرازق للجميع هو الله رب العالمين.

وعبر بمن في قوله وَمَنْ لَسْتُمْ تغليبا للعقلاء على غيرهم.

–قال السعدي : (وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ) أي أنعمنا عليكم بعبيد وإماء وأنعام لنفعكم ومصالحكم وليس عليكم رزقها، بل خولكم الله إياها وتكفل بأرزاقها.

–قال ابن كثير : والمقصود– من هذه الجملة– أنه– تعالى– يمتن عليهم بما يسر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب، وصنوف المعاشات وبما سخر لهم من الدواب التي يركبونها. والأنعام التي يأكلونها، والعبيد والإماء التي يستخدمونها، ورزقهم على خالقهم لا عليهم، فلهم هم المنفعة، والرزق على الله تعالى .

وممَّن اختار هذا المعنى المذكور: ابنُ جرير، والواحدي، وابنُ كثير، والسعدي.

وقيل: المعنى: وجعَلْنا في الأرضِ معايشَ لكم ولِمَن لستُم له بمُطعِمينَ من الدوابِّ والوحوشِ والطيورِ.

وممن اختار هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ قتيبة، والسمرقندي، وابنُ عاشور.

الفوائد :

١. من نعم الله العظيمة أن مد الأرض وسهلها للناس .
٢. رحمة الله بخلقه .
٣. الحكمة من الجبال وهي تثبيت الأرض .
٤. إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى .
٥. تكفل الله برزق عباده .
٦. أن الله يسر للناس سبل العيش في هذه الأرض .
٧. وجوب شكر الله على نعمه .

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢)) .

[الحجر : ٢١-٢٢] .

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ) أي : ما من شيء من أرزاق الخلق والعباد ومنافعهم إلا عندنا خزائنه ومستودعاته لا يملكها أحد إلا الله ، فخزائنها بيده ، يعطي من يشاء ، ويمنع من يشاء ، بحسب حكمته ورحمته سبحانه .

–قال الواحدي : الخزائن جمع الخزانة ، وهو اسم المكان الذي يخزن فيه الشيء أي يحفظ والخزانة أيضاً عمل الخازن ، ويقال : خزن الشيء يخزنه إذا أحرزه في خزانة .

–قال الرازي : وعامة المفسرين على أن المراد بقوله : {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَآئِنُهُ} هو المطر ، وذلك لأنه هو السبب للأرزاق ولمعايش بني آدم وغيرهم من الطيور والوحوش ، فلما ذكر تعالى أنه يعطيهم المعايش بين أن خزائن المطر الذي هو سبب المعايش عنده ، أي في أمره وحكمه وتدبيره .

–قال ابن الجوزي : قوله تعالى (وإِن من شيء) أي : وما من شيء (إِلا عندنا خزائنه) وهذا الكلام عامّ في كل شيء.

وذهب قوم من المفسرين إِلى أن المراد به المطر خاصة ، فالمعنى عندهم : وما من شيء من المطر إِلا عندنا خزائنه ، أي : في حُكمنا وتدبيرنا (وما ننزِّله) كل عام (إِلا بقَدَر معلوم) لا يزيد ولا ينقص ، فما من عام أكثرُ مطراً من عام ، غير أن الله تعالى

يصرفه إلى من يشاء ، ويمنعه من يشاء.

–قال ابن القيم : وإن من شيء إلا عندنا خزائنه : متضمن لكنز من الكنوز وهو أن يطلب كل شيء لا يطلب إلا ممن عنده خزائنه ومفاتيح تلك الخزائن بيديه وأن طلبه من غيره طلب ممن ليس عنده ولا يقدر عليه .

(**وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ**) أي: وما نُنَزِّلُ الأمطارَ والأرزاقَ وَكُلَّ شَيءٍ إلَّا بمِقدارٍ مُحَدَّدٍ، لا يزيدُ ولا يَنقُصُ، بحسَبِ مَشيئةِ اللهِ، وما تقتَضيه حِكمتُه .

كما قال تعالى (وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ) .

وقال سُبحانه (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ) .

وقال عزَّ وجلّ (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ) .

قال ابن مسعود : ما كان عامٌ بأمطر من عام ولكن الله يقسمه حيث يشاء ، فيمطر قوماً ويحرم آخرين.

(**وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ**) أي : وسخرنا الرياح ، تلقح السحاب كما يلقح الذكر الأنثى فيدر ماء .

(**فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ**) أي : فأنزلنا من السحاب ماءً عذباً ، جعلناه لسقياكم ولشرب أرضكم ومواشيكم .

–قال الشنقيطي : بين تعالى في هذه الآية الكريمة عظيم منته بإنزال الماء من السماء وجعله إياه عذباً صالحاً للسقيا وبين ذلك أيضاً في مواضع أخر :

كقوله (أَفَرَأَيْتُمُ المآء الذي تَشْرَبُونَ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ المزن أَمْ نَحْنُ المنزلون لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ) .

وقوله (هُوَ الذي أَنْزَلَ مِنَ السماء مَآءً لَّكُم مَّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزرع والزيتون والنخيل والأعناب وَمِن كُلِّ الثمرات) .

وقوله (وَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَآءً طَهُوراً لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً وَنُسْقِيَهِ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً) .

(**وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ**) أي : لستم بقادرين على خزنه ، بل نحن بقدرتنا نحفظه لكم قي العيون والآبار وآلأنهار ، ولو شئنا لجعلناه غائرا في الأرض فهلكتم عطشا كقوله : [قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين]

قال الشّنقيطي: قولُه تعالى (وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ) فيه للعُلماءِ وجهانِ مِن التفسيرِ، كلاهما يشهَدُ له قرآنٌ:

الأول: أنَّ معنى وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ أي: ليست خزائِنُه عندكم، بل نحن الخازنون له، ننزلُه متى شئنا .

وهذا الوجهُ تدلُّ عليه آياتٌ، كقوله (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) .

وقولِه (وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) . الآية، ونحو ذلك من الآيات.

الوجه الثاني: أنَّ معنى (وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)بعد أن أنزَلْناه عليكم، أي: لا تَقدِرونَ على حفظِه في الآبارِ والعُيونِ والغُدرانِ، بل نحن الحافظون له فيها، ليكون ذخيرةً لكم عند الحاجة .

ويدلُّ لهذا الوجه قولُه تعالى (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ) .

وقوله (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ) .

الفوائد :

١. كل شيء فخزائنه عند الله .
٢. عموم ملك الله وغناه .
٣. أن الرزق والخير لا يطلب إلا من الله ، لأن خزائنه بيده سبحانه .
٤. فقر العبد لربه .

٥. حكمة الله في تنزيل الله ، وأنها ينزلها بقدر حسب الحكمة .
٦. حكمة من حكم الرياح .
٧. بيان كيفية نزول المطر .
٨. نعمة نزول المطر على الناس .
٩. رحمة الله بعباده حيث يخزن هذه المياه في الآيار والعيون .

(وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥)) .
[الحجر : ٢٣-٢٥] .

(**وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ**) أي : هو وحده لا شريك له ، الذي يحي الخلق من العدم ، بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، ويميتهم لآجالهم التي قدرها ، فالموت والحياة بيدنا .

-**قال أبو حيان** : نحيي : نخرجه من العدم الصرف إلى الحياة ، ونميت : نزيل حياته. ونحن الوارثون الباقون بعد فناء الخلق.

-**قال الشنقيطي** : بين في هذه الآية الكريمة أنه هو الذي يحي ويميت وأوضح ذلك في آيات كثيرة :

كقوله (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا المصير) .

وقوله تعالى (رَبِّيَ الذي يُحْيِي وَيُمِيت) .

وقوله (لاَ إله إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَآئِكُمُ الأولين) .

وبين في ومواضع أخر أنه أحياهم مرتين وأماتهم مرتين .

كقوله (قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اثنتين وَأَحْيَيْتَنَا اثنتين) .

وقوله (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بالله وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) .

والإماتة الأولى هي كونهم نطفاً وعلقاً ومضغاً والإماتة الثانية هي موتهم عند انقضاء آجالهم في الدنيا والإحياءة الأولى نفخ الروح فيهم وإخراجهم أحياء من بطون أمهاتهم والإحياءة الثانية بعثهم من قبورهم أحياء يوم القيامة .

-**قال ابن عطية** : هذه الآيات مع الآيات التي قبلها تضمنت العبرة والدلالة على قدرة الله تعالى وما يوجب توحيده وعبادته ، فمعنى هذه : وإنا لنحن نحيي من نشاء بإخراجه من العدم إلى وجود الحياة ، وبرده عند البعث من مرقده ميتاً ، ونميت بإزالة الحياة عمن كان حياً .

-**وقال الخازن** : يعني بيدنا إحياء الخلق وإماتتهم لا يقدر على ذلك أحد إلا الله سبحانه وتعالى ، لأن قوله تعالى : وإنا لنحن يفيد الحصر يعني لا يقدر على ذلك سوانا .

(**وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ**) أي :ونحن الباقون بعد فناء الخلق ، نرث الأرض ومن عليها ، وإلينا يرجعون .

كما قال تعالى (إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُون) .

وقال سُبحانه (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَام) .

ومعنى كونه يرث الأرض من عليها أنه يبقى بعد فناء خلقه متصفاً بصفات الكمال والجلال يفعل ما يشاء كيف يشاء.

والغرض من ذلك : الاستدلال بهذه الأمور على وحدانية الله وكمال قدرته ، وأنه القادر على البعث والنشور والجزاء لعباده .

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه الوارث ولم يبين الشيء الذي يرثه وبين في مواضع أخر أنه يرث الأرض ومن عليها :

كقوله (إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأرض وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ) .
وقوله (وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً) ومعنى ما يقول أي نرثه الذي يقول إنه يؤتاه يوم القيامة من المال والولد كما ذكره الله عنه في قوله (أَفَرَأَيْتَ الذي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً) .
–قال الرازي : معناه أنه إذا مات جميع الخلائق ، فحينئذ يزول ملك كل أحد عند موته ، ويكون الله هو الباقي الحق المالك لكل المملوكات وحده فكان هذا شبيهاً بالإرث فكان وارثاً من هذا الوجه.
–قال ابن عطية : أي لا يبقى شيء سوانا ، وكل شيء هالك إلا وجهه لا رب غيره.
–قال القرطبي : أي الأرض ومن عليها ، ولا يبقى شيء سوانا.
نظيره (إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأرض وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ) فملك كلّ شيء لله تعالى.
ولكن ملك عباده أملاكاً فإذا ماتوا انقطعت الدّعاوى ، فكان الله وارثاً من هذا الوجه.
–وقال الخازن (ونحن الوارثون) وذلك بأن نميت جميع الخلق ، فلا يبقى أحد سوانا فيزول ملك كل مالك ويبقى جميع ملك المالكين لنا والوارث هو الباقي بعد ذهاب غيره والله سبحانه وتعالى هو الباقي بعد ذهاب غيره والله سبحانه وتعالى هو الباقي بعد فناء خلقه الذين أمتعهم بما آتاهم في الحياة الدنيا لأن وجود الخلق.
(وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ) أي : أحطنا علماً بالخلق أجمعين ، الأموات منهم والأحياء ، قال ابن عباس : المستقدمون كل من هلك من لدن آدم عليه السلام ، والمستأخرون من هو حي ومن سيأتي إلى يوم القيامة .
وقال مجاهد : المستقدمون : الأمم السابقة ، والمستأخرون أمة محمد ﷺ .
والغرض أنه تعالى محيط علمه بمن تقدم وبمن تأخر ، لا يخفى عليه شيء من أحوال العباد ، وهو بيان لكمال علمه بعد الاحتجاج على كمال قدرته .
–قال الآلوسي : (وَلَقَدْ عَلِمْنَا المستقدمين مِنكُمْ) من مات (وَلَقَدْ عَلِمْنَا المستخرين) من هو حي لم يمت .
جاء في (التفسير الوسيط) أَي : ولقد علمنا من سبقوكم من بني جنسكم، فإنا نحن الذين أحييناهم وأَمتناهم، وعلمنا أَيضًا المتأَخرين ممن هم أَحياءُ أَو سيوجدون بعدكم، فإِن الخالق الرازق الوارث لا يغيب عن علمه شيءُ، وكيف يغيب أَحد من خلقه عن علمه وهو الذي سيحشرهم ليجازيهم كما ينطق به قوله سُبحانه .
–قال ابن عطية : ثم أخبر تعالى بإحاطة علمه بمن تقدم من الأمم ، بمن تأخر في الزمن من لدن أهبط آدم إلى الأرض إلى يوم القيامة ، وأعلم أنه هو الحاشر لهم الجامع لعرض القيامة على تباعدهم في الأزمان والأقطار ، وأن حكمته وعلمه يأتيان بهذا كله على أتم غاياته التي قدرها وأرادها.
قال القاضي أبو محمد : بهذا سياق معنى الآية ، وهو قول جمهور المفسرين : وقال الحسن : معنى قوله (ولقد علمنا المستقدمين) أي في الطاعة ، والبدار إلى الإيمان والخيرات ، و(المستأخرين) بالمعاصي.
قال القاضي أبو محمد : وإن كان اللفظ يتناول كل تقدم وتأخر على جميع وجوهه فليس يطرد سياق معنى الآية إلا كما قدمنا .
وقال أبو حيان: والأَولى حملُ هذه الأقوالِ على التَّمثيلِ لا على الحصرِ، والمعنى: أنَّه تعالى محيطٌ عِلمُه بمن تقَدَّمَ وبمن تأخَّرَ وبأحوالِهم .
وممن اختار عمومَ الآيةِ: الرازي، وأبو حيان، والخازن، والنيسابوري، والبقاعي.
تنبيه :
من الأقوال التي قيلت :

أن المستقدمين: من مات، والمستأخرين، من هو حي لم يمت، رواه العَوفي عن ابن عباس ، وخُصَيف عن مجاهد ، وبه قال عطاء ، والضحاك ، والقرظي.

أن المستقدمين: من خرج من الخلق وكان. والمستأخرين: الذين في أصلاب الرجال، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال عكرمة.

أن المستقدمين: من مضى من الأمم ، والمستأخرين : أُمة محمد ﷺ ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد.

أن المستقدمين: المتقدِّمون في الخير ، والمستأخرون : المثبِّطون عنه ، قاله الحسن ، وقتادة.

أن المستقدمين: في صفوف القتال ، والمستأخرين عنها ، قاله الضحاك.

أن المستقدمين: من قُتل في الجهاد ، والمستأخرين : من لم يُقتَل ، قاله القرظي.

أن المستقدمين: أول الخلق ، والمستأخرين آخر الخلق .   (زاد المسير) .

–قال أبو حيان :والأولى حمل هذه الأقوال على التمثيل لا على الحصر ، والمعنى : أنه تعالى محيط علمه بمن تقدم وبمن تأخر وبأحوالهم ، ثم أعلم تعالى أنه يحشرهم.

–قال الآلوسي : وأنت تعلم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ومن هنا قال بعضهم : الأولى الحمل على العموم أي علمنا من اتصف بالتقدم والتأخر في الولادة والموت والإسلام وصفوف الصلاة وغير ذلك.

(**وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ**) يجمعهم للحساب والجزاء .

(**إِنَّهُ حَكِيمٌ**) في صنعه وتدبيره ، يضع الأشياء مواضعها .

(**عَلِيمٌ**) بكل شيء ، لا تخفى عليه خافية سبحانه .

الفوائد :

١. أن الموت والحياة بيد الله .
٢. أن كل بني آدم يموت .
٣. أن الله عز وجل هو الحي الذي لا يموت .
٤. عموم علم الله تعالى ، فلا يخفى عليه شيء .
٥. الترغيب في الإخلاص ، لأن الله يعلم ذلك .
٦. الترهيب من أن يكتم الإنسان في قلبه الغش أو النفاق أو الرياء ، فإنه الله عليم بذات الصدور .
٧. إثبات الحشر .
٨. إثبات القيامة .
٩. إثبات اسم من أسماء الله وهو الحكيم المتضمن للحكمة البالغة .
١٠. إثبات اسم من أسماء الله وهو العليم المتضمن للعلم الكامل الذي لم يسبقه جهل ولا يلحقه نسيان .

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥)) .

[الحجر : ٢٦- ٣٥] .

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ) أي : خلقنا آدم من طين يابسٍ يسمع له صَلصلة أي صوت إذا نُقر .

–قال الرازي : إشارة إلى ذلك الإنسان الأول ، والمفسرون أجمعوا على أن المراد منه هو آدم عليه السلام .

قال الخازن : قوله تعالى (ولقد خلقنا الإنسان) يعني آدم عليه السلام في قول جميع المفسرين سمي إنساناً لظهوره وإدراك البصر إياه ، وقيل من النسيان لأنه عهد إليه فنسي .

(مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ) من طين أسود متغير لونه وريحه من طول مكثه .

قال ابن الجوزي: قال ابنُ الأنباري: لا خلافَ أنَّ الحمأَ: الطينُ الأسودُ المتغيّرُ الريحِ . (زاد المسير) .

وممَّن ذهب إلى أنَّ مَسْنُونٍ بمعنى متغيرٍ: ابنُ جرير، والقرطبي، والسعدي.

وقيل : مسنون أملس ، وقيل : المنتن ، وقيل : المصبوغ المفرغ .

وأما ترتيب مراحل خلق الله سبحانه وتعالى لآدم :

فإنها بدأت بـ " التراب "

قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَاب) .

قال تعالى (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُون) .

وقال تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُون) .

ثم أضيف إليه " الماء " فصار : " طيناً " :

قال تعالى (إذ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ) .

وقال تعالى (وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان مِنْ طِينٍ) .

وقد وصف الله – سبحانه وتعالى – هذا الطين بأنه كان طينًا لازبًا؛ أي: لزج لاصقًا متماسكًا يشدُّ بعضه ببعض، قال تعالى (فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِب) .

ثم صار هذا الطين " حمأ مسنوناً " أي : أسود متغير :

فلما يبس هذا الطين – من غير أن تمسه النار – صار " صلصالاً " – والصلصال هو الطين اليابس لم تمسه نار ، ثم نفخ الله سبحانه وتعالى .

. قال تعالى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُون) .

(وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ) أي : ومن قبل آدم خلقنا الجان – أي الشياطين ورئيسهم إبليس – من نار السموم وهي النار الحارة الشديدة التي تنفذ في المسام فتقتل بحرها .

قال المفسرون : عني بالجانَّ هنا " إبليس " أبا الجنَّ لأن منه تناسلت الجن فهو أصل لها ، كما أن آدم أصل للإنس .

قال الشنقيطي: وسُمِّيت نارَ السمومِ؛ لأنَّها تنفُذُ في مسامِّ البدَنِ؛ لشِدَّةِ حَرِّها .

وقال ابنُ عطية : والسَّمُوم- في كلام العرب- إفراطُ الحرِّ حتى يَقتُلَ، مِن نارٍ أو شمسٍ أو ريح .

(**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ**) أي : اذكر يا محمد وقت قول ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين يابس أسود متغير .

– **قال ابن كثير** : فيه تنويه بذكر آدم في الملائكة قبل خلقه له ، وتشريفه إياه بأمر الملائكة بالسجود له ، وامتناع إبليس عدوه عن السجود له حسداً وكفراً .

(**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ**) أي : سويت خلقه وأكملت صورته وجعلته إنساناً كاملاً معتدل الأعضاء .

وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي) أي : ونفخْتُ فيه الرُّوحَ التي هي مِن خَلْقي .

(**فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ**) أي: خروا له ساجدين، سجود (تحية وتكريم) لا سجود عبادة، قال المفسرون: وإنما أضاف الروح إليه تعالى، على سبيل التشريف والتكريم، كقوله (بيت الله) و(ناقة الله) و(شهر الله) وهي من إضافة الملك إلى المالك، والصنعة إلى الصانع.

(**فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ**) أَي : فسجد الملائكة لآدم بعد تمام خلقه ونفخ الروح فيه، تحقيقًا لما شرطه الله وأَوجبه عليهم قبل خلقه؛ من السجود له بعد تمام خلقه، ولم يتخلف عن السجود إلا إبليس .

(**إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ**) أَي : فسجد الملائكة جميعًا إلا إبليس، فإنه امتنع عن أَن يكون معهم في سجودهم، وقد اعتبره الله آثمًا بامتناعه عن السجود معهم، وعاقبه بإخراجه من الجنة ولعنِه كما سيأْتي بيانه.

(**قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ**) أَي : قال إبليس لربه بعد أَن وبخه على تركه السجود لآدم: لا يستقيم منى وقد خلقتني من نار، أَن أَسجد لبشر خلقته من طين جاف أَصله من طين أَسود منتن، ويعنى بذلك أَن مادته التي خلق منها وهي النار، أَشرف من المادة التي خلق منها آدم وهى الطين الأَسود المنتن، فهو بذلك أعظم منه أَصلاً –كما زعم–، فكيف يسجد من أَصله أعظم، لمن أَصله دونه، وقد أَخطأَ اللعين في هذا القياس كما سيأتي بالفوائد إن شاء الله .

(**قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ**) أي : اخرج من السموات ، فانك مطرود من رحمتي .

(**وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ**) أي : وإن عليك الإبعاد من رحمة الله إلى يوم الجزاء، فلا يوفقك في الدنيا للتوبة من شقوتك ولا يمدك فيها بقبس من هداية، ولا يعفو عنك في الآخرة، بل يجعل مقرك النار وبئس القرار.

وقيل إن المراد باللعنة هنا لعنة الخلائق له، بأَن يكون موضع سخطهم وطلبهم من الله إلى يوم الجزاء أَن لا يرحمه، والمقصود منه يوم النفخة الأُولى التي يموت عندها الخلائق، فإنه من يوم الدين، لأَنه مقدمة له، والتفسير الأَول أَوْلى.

فائدة : ١

أن خلق آدم كان من تراب .

قال تعالى (هوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ) يعني أباهم آدم، الذي هو أصلهم، ومنه خرجوا فانتشروا في المشارق والمغارب.

وقال تعالى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ) .

وقال تعالى (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ).

وقال تعالى (والله خلقكم من تراب) أي: ابتدأ خلق أبيكم آدم من تراب.
وقال تعالى (وبدأ خلق الإنسان من طين) .
وقال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ) وقال تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ).
قال ﷺ (الناس بنو آدم ، وآدم من تراب).

فائدة : ٢

أن الجن مخلوق من نار .
عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (خُلِقَتِ الْمَلاَئِكَةُ مِنْ نُورٍ وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُم) رواه مسلم

فائدة : ٣

أمر الله للملائكة بالسجود لآدم متى ؟ هل قبل خلقه أم بعده ؟
في هذه الآية (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلآئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) .
وفي آية سورة ص (وإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلآئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ).
دليل بأنه قال لهم ذلك قبل خلق آدم .

فائدة ٤

قوله تعالى (فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ) اختلف العلماء ما المراد بالملائكة:
فقيل: ملائكة الأرض فقط.
وقيل: ملائكة الأرض والسماء.
ونسبه الرازي للأكثر.
ورجحه ابن كثير، لقوله تعالى (فَسَجَدَ الملائكة كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ).
– **قال ابن تيمية**: ومن قال خلافه فقد رد القرآن بالكذب والبهتان، لأنه سبحانه قال (فسجد الملائكة كلهم أجمعون) وهذا تأكيد للعموم. ... (مجموع الفتاوي).

فائدة : ٥

قوله تعالى (فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِين) اختلف ما المراد بالسجود:
فقيل: المراد بالسجود الخضوع لا الانحناء.
قال الرازي مضعفاً هذا القول: ... فضعيف أيضاً؛ لأن السجود لا شك أنه في عرف الشرع عبارة عن وضع الجبهة على الأرض فوجب أن يكون في أصل اللغة كذلك؛ لأن الأصل عدم التغيير.
وقيل: كان قبلة والسجدة لله.
وقيل: السجود لآدم إكراماً واحتراماً، وهي طاعة لله لأنها امتثال لأمر الله تعالى.
وهذا القول هو الراجح، فهذا السجود تعظيم لله لأنه امتثال أمره لا عبادة آدم، ولا سجود إلا بأمر الله، والأمر إن كان ممتثلاً به أمر الله فالمطاع فيه الله، ونظيره أن ملَك الموت يقال له: اقبض روح محمد ﷺ وسائر الأنبياء، فأي جريمة في الدنيا أعظم من قتل النبي ﷺ ونزع روحه، وقتل الأنبياء والأولياء؟ لكن ملك الموت مأمور من الله، فهو مطيع في ذلك الفعل، لأنه إنما فعله بأمر الله.

فائدة : ٦

إبليس سمي بذلك لأنه أبلَسَ من رحمة الله: أي أيس منها يأساً لا رجاء بعده.

فائدة : ٧

في هذه الآية سبب رفض إبليس السجود (قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ)
وقال تعالى (قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) .

وهذا قياس فاسد لأمور:

أولاً: أنه في مقابلة النص، وأي قياس في مقابلة النص فاسد الاعتبار.

ثانياً: أنا لا نسلم أن النار خير من الطين، بل الطين خير من النار، لأن طبيعتها الطيش والإفساد والتفريق، وطبيعته الرزانة والإصلاح.

ثالثاً: أنا لو سلمنا تسليماً جدلياً أن النار خير من الطين، فإنه لا يلزم من ذلك أن إبليس خير من آدم، لأن شرف الأصل لا يقتضي شرف الفرع.

فائدة : ٨

قوله تعالى (فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى ...) استدل بها بعض العلماء على أن إبليس من الملائكة، وهذه المسألة اختلف فيها العلماء على قولين:

القول الأول: أن إبليس ليس من الملائكة بل هو من الجن.

أ- للآية التي في سورة الكهف (إلا إبليس كان من الجن) والجن غير الملائكة، وهذا نص قرآني صريح في محل النزاع.

ب- ولأن الملائكة معصومين من ارتكاب الكفر الذي ارتكبه إبليس كما قال تعالى عنهم (لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ).

ج- ولقوله ﷺ (خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار) رواه مسلم.

د- أن إبليس له نسل وذرية قال الله تعالى (أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو).

وقالوا إن استثناء الله إياه منهم لا يدل على كونه من جملتهم، وإنما استثناه منهم، لأنه كان مأموراً بالسجود معهم، فلما دخل معهم في الأمر جاز إخراجه بالاستثناء منهم.

القول الثاني: أنه أصله كان من الملائكة.

ونسب هذا القول القرطبي لجمهور العلماء.

قال القاسمي: قاله ابن عباس، وابن مسعود، وسعيد بن المسيب، واختاره الشيخ موفق الدين، والشيخ أبو الحسن الأشعري، وأئمة المالكية، وابن جرير الطبري. قال البغوي: هذا قول أكثر المفسرين.

لأنه سبحانه أمر الملائكة بالسجود لآدم. قال تعالى: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ) فلولا أنه من الملائكة، لما توجه الأمر إليه بالسجود، ولو لم يتوجه الأمر إليه بالسجود لم يكن عاصياً، ولما استحق الخزي والنكال.

وقالوا: فإخراجه بالاستثناء منهم دليل على أنه منهم.

- قال الماوردي: وعلى قول من يقول: إن إبليس كان من الملائكة، فاختلفوا في قوله تعالى (إِلاَّ إِبْلِيسَ كان مِنَ الْجِنّ) لِمَ سماه الله تعالى بهذا الاسم، على أربعة أقاويل:

أحدها: أنهم حي من الملائكة يُسَمَّوْن جنّاً كانوا من أشدِّ الملائكة اجتهاداً، وهذا قول ابن عباس.

والثاني: أنه جعل من الجنّ، لأنه من خُزَّانِ الجنَّةِ، فاشتق اسمه منها، وهذا قول ابن مسعود.

والثالث: أنه سمي بذلك لأنه جُنَّ عن طاعة ربِّه، وهذا قول ابن زيدٍ.

والرابع: أن الجِنِّ لكلِّ ما اجْتَنَّ فلم يظهر، حتى إنهم سَمَّوُا الملائكة جناً لاستتارهم، وهذا قول أبي إسحاق.

فوائد عامة :

١. إثبات القول لله.

٢. أن خلق الجان سابق على خلق الإنسان .

٣. أن الملائكة عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فهم بمجرد أن أمرهم الله- تعالى- بالسجود لآدم، سجدوا جميعا دون أن يشذ منهم أحد.

٤. بيان فضل آدم على الملائكة، حيت أن الله أمر الملائكة أن يسجدوا له تعظيماً له، ولآدم فضائل:

أنه أبو البشر – خلقه الله بيده – علمه الله أسماء كل شيء – أن الله نفخ فيه من روحه – وأسجد له الملائكة.

٥. أن السجود لغير الله إذا كان بأمر الله فهو عبادة، لأن الله تعالى يحكم بما شاء، ويدل على أن المحرم إذا كان بأمر الله كان عبادة قصة إبراهيم عليه السلام، حين أمره الله أن يذبح ابنه إسماعيل فامتثل أمر الله.

٦. أن الإصرار على معصية الله- تعالى- يؤدى إلى الطرد من رحمته- سبحانه- ومن الخروج من رضوانه ومغفرته.

٧. أن التكبر والغرور والحسد، من أبرز الصفات الذميمة التي حملت إبليس على الامتناع عن السجود لآدم، وعلى مخالفة أمر ربه- عز وجل-.

٨. أن ترك السجود لله كفر بالله.

٩. أن الأمر يقتضي الوجوب إذا لم يوجد قرينة، وجه الدلالة: أن الله قال للملائكة (اسجدوا) فلما امتنع إبليس وبّخه وحكم عليه بالعصيان وقال (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ). ومما يدل على أن الأمر للوجوب قوله تعالى (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ).

١٠. الحذر من الرجس والسريرة الخبيثة، لأن إبليس غلبه ما في قلبه من الرجس والسريرة الخبيثة حتى استكبر وأبى.

١١. طاعة الملائكة لربها.

(قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَى يَومِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)) .

[الحجر : ٣٦-٤٠] .

(**قَالَ**) إبليس .

(**رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**) رب أمهلني وأخرني إلى اليوم الذي تبعث فيه عبادك وهو يوم القيامة .

–قال الخازن : ... وأراد بهذا السؤال أنه لا يموت أبداً لأنه أذا أمهل إلى يوم القيامة ، ويوم القيامة لا يموت فيه أحد لزم من ذلك أنه لا يموت أبداً ، فلهذا السبب سأل الإنظار إلى يوم يبعثون ، فأجابه الله سبحانه وتعالى بقوله :

(**قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَى يَومِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ**) أي : قال له الله : إنك من المؤجلين ، إلى حين موتِ الخلائق .

– قال القرطبي : أراد بسؤاله الإنظار – إلى يوم يبعثون – ألا يموت ، لأن البعث لا موتَ بعده ، فأجابه المولى بالإنظار ، إلى يوم الوقت المعلوم ، وهو يوم موت الخلائق ، فيموت إبليس ثم يُبعث .

–وقال ابن الجوزي : يعني : المعلوم بموت الخلائق فيه ، فأراد أن يذيقه ألم الموت قبل أن يذيقه العذاب الدائم في جهنم.

– وقال الآلوسي : (إلى يَوْمِ الوقت المعلوم) وهو وقت النفخة الأولى كما روى عن ابن عباس ، وعليه الجمهور.

ووصفه بالمعلوم اما على معنى أن الله تعالى استأثر بعلمه أو على معنى معلوم حاله وأنه يصعق فيه من في السموات ومن في الأرض إلا ما شاء الله تعالى .

–قال الماوردي : وليس هذا من الله تعالى إجابة لسؤاله ، لأن الإجابة تكرمة ، ولكن زيادة في بلائه ، ويعرف أنه لا يضر بفعله غير نفسه.

–قال ابن عاشور : وهذا الإنظار رمز إلهي على أن ناموس الشر لا ينقضي من عالم الحياة الدنيا وأن نظامها قائم على التصارع بين الخير والشر والأخيار والأشرار ، قال تعالى (بل نقذف بالحق على الباطل) وقال (كذلك يضرب الله الحقّ والباطل) .

(**قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي**) أي : بسبب إغوائك وإضلالك لي .

(**لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ**) أي : لأزينن لذرية آدم المعاصي والآثام .

–قال ابن عاشور : أي لأزينن لهم الشر والسيئات فيرونها حسنة ، وأزيّن لهم الإقبال على الملاذ التي تشغلهم عن الواجبات.

(**وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**) أي : ولأضلنهم عن طريق الهدى أجمعين .

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن إبليس أخبر أنه سيبذل جهده في إضلال بني آدم حتى يضل أكثرهم .

وبين هذا المعنى في مواضع أخر :

كقوله (أَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المستقيم ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)

وقوله (وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً) .

وقوله (قَالَ أَرَأَيْتَكَ هذا الذي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إلى يَوْمِ القيامة لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً) .

وكل آية فيها ذكر إضلال إبليس لبني آدم بين فيها أن إبليس وجميع من تبعه كلهم في النار :

كما قال هنا (وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَاب) .

وقال في الأعراف (قَالَ اخرج مِنْهَا مَذْءُوماً مَّدْحُوراً لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ) .

وقال في سورة بني إسرائيل (قَالَ اذهب فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُوراً) .

وقال في ص (قَالَ فالحق والحق أَقُولُ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) . (أضواء البيان) .

(**إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**) ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن الشيطان لما أوعد بأنه سيضل أكثر بني آدم استثنى من ذلك عباد الله المخلصين معترفاً بأنه لا قدرة له على إضلالهم .

ونظيره قوله في ص أيضاً (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين) .

وعباد الله المخلصون هم المرادون بالاستثناء في قوله في بني إسرائيل (لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً) .

وقوله في سبأ (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فاتبعوه إِلاَّ فَرِيقاً مِّنَ المؤمنين) .

وهم الذين احترز منهم بقوله (وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ) . (أضواء البيان) .

قال ابن عطية : وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر والحسن والأعرج " المخلَصين " بفتح اللام ، أي الذين أخلصتهم أنت لعبادتك وتقواك ، وقرأ الجمهور " المخلِصين " بكسر اللام ، أي الذين أخلصوا الإيمان بك وبرسلك .

قال السعدي: الْمُخْلَصِينَ أي: الذين أخلصتَهم، واجتبيتَهم؛ لإخلاصِهم وإيمانِهم وتوكُّلِهم .

الفوائد :

١. إقرار إبليس أن الله ربه .

٢. إثبات البعث .

٣. إثبات يوم الجزاء .

٤. أن الله أجاب طلب إبليس ودعاءَه لكن لا {إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩)} بل {إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١)} ويوم الوقت المعلوم، هو يوم موت الناس أجمعين حين ينفخ في الصور فيصعقون جميعاً .

٥. أن الله قد يقدر أسباب الشر لحكمة، وذلك بإجابة دعاء إبليس أن ينظره إلى يوم الوقت المعلوم ، وإبليس لا شك أنه مبدأ كل شر، ولكن الله تعالى أبقاه لحكمة عظيمة، ولولا بقاء إبليس ما وجد عاص في الأرض، وإذا انتفى العصيان صار الناس أمة واحدة، ولم يكن الإيمان مزية، ولم يكن جهاد ولا أمر بالمعروف ولا نهي عن المنكر، ولو كان الناس أمة واحدة لتعطل كثير من شعائر الإسلام، فكان من الحكمة بقاء إبليس، وبقاء ما يدعو إليه إبليس.

٦. يجب الحذر من إبليس ووساوسه .

٧. مزية عباد الله المخلصين حيث سلموا من إغواء إبليس .

٨. أن الله تعالى يمن على من يشاء من عباده فيخلصهم له .

(قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (٤٤)) .

[الحجر : ٤١ – ٤٤] .

(**قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ**) أَيْ : مَرْجِعُكُم كُلُّكُمْ إِلَيَّ، فَأُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنَّ شَرًّا فَشَرٌّ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) .

وممن اختار هذا المعنى : ابن جرير ، وابن كثير .

وقيل المعنى : قال الله: طريقُ الحَقِّ والهُدى والإخلاصِ طريقٌ مُعتَدِلٌ، لا اعوِجاجَ فيه، يدُلُّ عليَّ، ويُوصِلُ إليَّ، وإلى جنَّتي .

كما قال تعالى (إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وقال سُبحانه (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ) .

وقال عزَّ وجلَّ (وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) .

وقيل المعنى : هذا طريق حق على أن أراعيه، وهو أن لا يكون لك سلطان على عبادي، إلا من اختار اتباعك منهم لغوايته .

(**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ**) أي : تصرف وتسلط .

(**إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ**) استثناء منقطع ، لأن الغاوين ليسوا من عباد الله المخلصين ، والمعنى : لكن من غوى وضل ورضي بولايتك وطاعتك من الكافرين فلك عليهم تسلط ، لأن الشيطان إنما يتسلط على الشاردين عن الله ، كما يتسلط الذئب على الشاردة من القطيع .

وممَّن اختار أنَّ الاستثناءَ هنا منقطِعٌ بمعنى (لكنْ): ابنُ عطية، وابنُ تيمية، وابنُ كثير .

والغاوين جمع غاوي ، وهو الضال الذي عرف الحق وتركه ، وضده الراشد وهو من عرف الحق فاتبعه .

(**وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ**) أي : موعد إبليس وأتباعه جميعاً نار الجحيم .

كما قال تعالى (وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) .

وقال سُبحانه (قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) .

وكما قال تعالى عن القرآن (وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ) .

(**لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ**) أي : إن لجهنم سبعة أبواب، لكل باب منها، فريق معين من الغاوين يدخلون منه، على حسب تفاوتهم في الغواية وفي متابعة إبليس .

ويرى كثير من المفسرين أن المراد بالأبواب هنا الأطباق والدركات ، أي : لجهنم سبعة أطباق أو دركات بعضها فوق بعض، ينزلها الغاوون، بحسب أصنافهم وتفاوت مراتبهم في الغي والضلال.

قال البيضاوي: لها سبعةُ أبواب يدخلونَ منها؛ لكثرتهم، أو طبقات ينزِلونها بحسَبِ مراتبهم في المتابعةِ .

(**لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ**) أي : لكل جماعة من أتباع (إبليس) باب معينٌ معلوم .

قال ابن كثير :كل يدخل من بابٍ بحسب عمله ، ويستقر في دَرَك بقدر عمله .

الفوائد :

١. أن طريق الحق طريق عدل مستقيم يرجع إلى الله ويوصل إليه .
٢. أن عباد الله المخلصين ليس لإبليس عليهم سلطان .
٣. أن لإبليس سلطاناً على من اتبعه ووالاه وأطاعه من الغاوين .
٤. تهديد إبليس ومن اتبعه بجهنم .
٥. إثبات جهنم .
٦. تهويل أمر جهنم وأن لها سبعة أبواب .
٧. إثبات الحساب والجزاء .
٨. من رحمة الله أنه جعل للجنة ثمانية أبواب .

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧) لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ (٥٠)) .

[الحجر : ٤٥- ٥٠] .

(**إِنَّ الْمُتَّقِينَ**) الذين اتقوا ربهم بفعل أوامره واجتناب نواهيه .

(**فِي جَنَّاتٍ**) فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

(**وَعُيُونٍ**) متفجرة بالماء .

كما قال تعالى (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ . فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ) .

وقال تعالى (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ .....) .

وقال تعالى (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ) .

وفي هذا أن تقوى الله من أسباب دخول الجنة .

قال تعالى (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ).
وقال تعالى (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ) .
وقال تعالى (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ).
وقال تعالى (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً).
وقال تعالى (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ).
ولما سئل النبي ﷺ عن أكثر ما يدخل الجنة؟ قال: تقوى الله وحسن الخلق.
وقد ذكر الله تعالى بعض صفاتهم :
قال تعالى (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) .
وقال تعالى (وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) .
(**ادْخُلُوهَا**) أي : يقال لهم على وجه التكريم والترحيب .
(**بِسَلاَمٍ**) أي : سالمين من الآفات ومن كل سوء .
وأيضاً تسلم عليهم الملائكة ، ويسلم بعضهم على بعض .
قال تعالى (تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ، وَقَوْلِهِ (وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) .
وَقَال تعالى (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا الْآيَةَ) وَقَوْلِهِ (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا).
وَقَوْلِهِ (سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ) .
قال ابن القيم: ... فإنها دار السلامة من كل بلية وآفة ومكروه ، وهي دار الله ، واسمه سبحانه وتعالى السلام ، الذي سلمها وسلم أهلها ، وتحيتهم فيها سلام ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم ، والرب تعالى يسلم عليكم من فوقهم كما قال تعالى (لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون سلام قولاً من رب رحيم).
(**آمِنِينَ**) من الموت والنوم والنصب، واللغوب وانقطاع شيء من النعيم الذي هم فيه أو نقصانه ومن المرض، والحزن والهم وسائر المكدرات .
قال ابن كثير : أي : من كل خوف وفزع ..
(**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ**) هذا من جملة ما ينعم الله به على أهل الجنة، أن ينزع الله ما في قلوبهم من الغلّ على بعضهم بعضاً، حتى تصفو قلوبهم ويودّ بعضهم بعضاً، فإن الغلّ لو بقي في صدورهم كما كان في الدنيا، لكان في ذلك تنغيص لنعيم الجنة، لأن المتشاحنين لا يطيب لأحدهم عيش مع وجود الآخر.
عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا) رواه البخاري.
قال تعالى (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ).

والغلّ: الحقد الكامن في الصدور.

وهذا من أعظم اللذات: حيث يكون الإنسان خالداً مخلداً، وحيث يكون هو ورفقاؤه في ذلك النعيم ليس بين اثنين منهم شحناء ولا عداوة ولا حقد ولا حسد.

- والحكمة من ذلك:

قيل: حتى يكونوا إخواناً متحابين، وأخلاء متصافين.

وقيل: أن المراد منه أن درجات أهل الجنة متفاوتة بحسب الكمال والنقصان، فالله تعالى أزال الحسد عن قلوبهم حتى أن صاحب الدرجة النازلة لا يحسد صاحب الدرجة الكاملة.

وقيل: قال ابن عطية: هذا إخبار من الله عز وجل أنه ينقي قلوب ساكني الجنة من الغل والحقد، وذلك أن صاحب الغل متعذب به ولا عذاب في الجنة.

(**إِخْوَانًا**) أي : حال كونهم إخواناً وإخوة في الله متحابين متصافين .

(**عَلَى سُرُرٍ**) جمع سرير ، وهو اسم لما يجلس عليه موطأً للسرور .

(**مُّتَقَابِلِينَ**) أي : يقابل بعضهم بعضاً ولا يتدابرون .

(**لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ**) أي : تعب .

(**وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ**) وهـــذا من أعظم نعيم الجنة ، أنهم لا يخرجون منها ، بل هم فيها خالدون ، أبد الآبدين ودهر الداهرين .

وهذا من أعظم تمام النعيم، أن أهل الجنة خالدون فيها أبد الآبدين.

وهذا من أعظم النعيم وبه يتم النعيم، لأن أكبر ما ينكد اللذائذ، وينغص اللذات، أن يعلم صاحبها أنه زائل عنها، وأنها زائلة عنه، فكل نعيم بعده موت فليس بنعيم، والنعيم إذا تيقن صاحبه الانتقال عنه صار غماً.

فالفكرة بالزوال تكدر اللذات الحاضرة، ولذا كان النبي ﷺ يأمرهم أن يكثروا من ذكر الموت، ويقال للموت: هاذم اللذات، لأن من تذكره ضاعت عليه لذته التي هو فيها، لأنه يقطعها، ولهذا قال (خالدين فيها) لا يزول عنهم ذلك النعيم فتتكدر غبطتهم.

وجاءت الآيات الكثيرة بخلود أهل الجنة بالجنة.

فقال تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً).

وقال تعالى (قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً).

وقال تعالى (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً).

وقال تعالى (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ).

وقال تعالى (... وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ) .

وقال ﷺ (من يدخل الجنة ينعم ولا ييأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه) رواه مسلم.

وقال ﷺ (يناد مناد: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تيأسوا أبداً) رواه مسلم.

وقال ﷺ (إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فيؤتى بالموت على شكل كبش فيذبح، فيقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت ...) متفق عليه.

فائدة :

في الجنة ثلاث نعم ليست في الدنيا :

الخلود الدائم ، جوار الرحمن ورؤيته ، وذهاب الآلام .

الفوائد :

١. فضل التقوى .
٢. أن التقوى سبب لدخول الجنة .
٣. من نعيم الجنة العيون التي تتفجر منها المياه .
٤. أن أهل الجنة آمنين من كل خوف وهم وتعب .
٥. من أعظم نعيم الجنة طهارة قلوبهم من الغل والحسد .
٦. فضل من طهر قلبه من الحسد .
٧. خطر الحسد والغل وأنه سبب لعدم الراحة .
٨. أن الدنيا دار النصب والتعب .
٩. أن من أعظم نعيم الجنة خلودهم فيها .
١٠. لا خلود في الدنيا .

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ (٥٠)) .

[الحجر : ٤٩-٥٠] .

(**نَبِّئْ عِبَادِي**) أي: أخبرهم خبراً جازماً مؤيداً بالأدلة .

(**أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**) فإنهم إذا عرفوا كمال رحمته، ومغفرته سَعَوا في الأسباب الموصلة لهم إلى رحمته وأقلعوا عن الذنوب وتابوا منها، لينالوا مغفرته.

ومع هذا فلا ينبغي أن يتمادى بهم الرجاء إلى حال الأمن والإدلال، فنبئهم :

(**وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ**) أي: لا عذاب في الحقيقة إلا عذاب الله الذي لا يقادر قدره ولا يبلغ كنهه نعوذ به من عذابه، فإنهم إذا عرفوا أنه (لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد) حذروا وأبعدوا عن كل سبب يوجب لهم العقاب .

فالعبد ينبغي أن يكون قلبه دائماً بين الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة، فإذا نظر إلى رحمة ربه ومغفرته وجوده وإحسانه، أحدث له ذلك الرجاء والرغبة، وإذا نظر إلى ذنوبه وتقصيره في حقوق ربه، أحدث له الخوف والرهبة والإقلاع عنها.

–**قال ابن عاشور** : وإنما قدم الأمر بإعلام الناس بمغفرة الله وعذابه ابتداء بالموعظة الأصلية قبل الموعظة بجزئيات حوادث الانتقام من المعاندين وإنجاء من بينهم من المؤمنين لأن ذلك دائر بين أثر الغفران وبين أثر العذاب. ... وقدمت المغفرة على العذاب لسبق رحمته غضبه.

– **قال الرازي** : اعلم أنه سبحانه وتعالى ما ذكر في القرآن آية في الوعيد إلا وذكر بجنبها آية في الوعد، وذلك لفوائد:

أحدها: ليظهر بذلك عدله سبحانه، لأنه لما حكم بالعذاب الدائم على المصرين على الكفر وجب أن يحكم بالنعيم الدائم على المصرين على الإيمان.

وثانيها: أن المؤمن لا بد وأن يعتدل خوفه ورجاؤه.

وثالثها: أنه يظهر بوعده كمال رحمته وبوعيده كمال حكمته فيصير ذلك سبباً للعرفان.

- ينبغي على المسلم أن يكون راجياً خائفاً.

وقد امتدح الله الأنبياء والعباد الصالحين بالرغبة والرهبة.

فقال تعالى (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ).

عَنْ أَنَسٍ (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى شَابٍّ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ فَقَالَ «كَيْفَ تَجِدُكَ». قَالَ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَرْجُو اللَّهَ وَإِنِّي أَخَافُ ذُنُوبِي. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (لاَ يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلاَّ أَعْطَاهُ اللَّهُ مَا يَرْجُو وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَاف). رواه الترمذي

وقد وصف الله المؤمنين بعمل الصالحات مع الخوف من الله.

كما قال الله تعالى (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ).

وقال تعالى (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ* أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ).

وعن عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ (سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) قَالَتْ عَائِشَةُ أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ قَالَ: لاَ يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لاَ يُقْبَلَ مِنْهُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) رواه الترمذي.

وقد ذكر الله - تعالى - الخوف مقروناً بالرجاء في كتابه الكريم في مواضع كثيرة.

قال تعالى (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءانَاء الَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُو الألْبَابِ).

وقوله تعالى (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ).

وقوله تعالى (نَبِيءِ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ*وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ).

وقوله تعالى (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً).

وقوله تعالى (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا).

وكما في قوله - سبحانه - (يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا).

ولهذا قال السَّلف - رحمهم الله - كلِمةً مشهورةً، وهي: مَنْ عبدَ الله بالحبِّ وحده، فهو زنديق، ومَن عبدَه بالخوف وحْده، فهو حروريٌّ - أي: خارجي - ومَن عبدَه بالرَّجاء وحْده، فهو مرجئ، ومن عبدَه بالخوف والحب والرَّجاء، فهو مؤمن موحِّد.

- **قال ابن القيم:** القلب في سيره إلى الله - عزَّ وجلَّ - بمنزلة الطَّائر؛ فالمحبَّة رأسه، والخوف والرَّجاء جناحاه، فمتى سلِم الرَّأس والجناحان، فالطائر جيِّدُ الطيران، ومتى قطع الرأس، مات الطائر، ومتى فقد الجناحان، فهو عرضة لكل صائدٍ وكاسر.

- **وقال ابن القيم:** من تأمل الصحابة وجدهم في غاية الجد في العمل مع غاية الخوف.

كان الصديق يقول: وددت لو أني شعرة في جنب عبد مؤمن.

وكان يمسك بلسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد.

وكان يبكي كثيراً ويقول: ابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا.

وهذا عمر قرأ سورة الطور إلى أن بلغ قوله (إن عذاب ربك لواقع) فبكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه.

وكان يمر بالآية في ورده بالليل فتخنقه العبرة، فيبقى في البيت أياماً ويعاد ويحسبونه مريضاً.

وكان في وجهه خطان أسودان من البكاء.

وهذا عثمان كان إذا وقف على القبر يبكي حتى تبتل لحيته.
وهذا علي وبكاؤه وجوفه، وكان يشتد خوفه من اثنين: طول الأمل، واتباع الهوى، قال: فأما طول الأمل فينسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق.
وهذا ابن عباس كان أسفل عينيه مثل الشراك البالي من الدموع.
وكان أبو ذر يقول: يا ليتني كنت شجرة تعضد، وودت أني لم أخلق. ... (الجواب الكافي).
- قال الحسن البصري: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن.
- وقال السبكي في طبقات الشافعية الكبرى: الأنبياء عليهم السلام يعلمون أنهم مأمونوا العواقب ومع ذلك هم أشد خوفاً، والعشرة المشهود لهم بالجنة كذلك، وقد قال عمر ﷺ: لو أن رجلي الواحدة داخل الجنة والأخرى خارجها ما أمنت مكر الله.
الفوائد :
١. أمر الله لنبيه ﷺ أن يخبر الناس بذلك .
٢. أن من أسماء الله الغفور .
٣. أن من أسماء الله الرحيم .
٤. أن رحمة الله سبقت غضبه .
٥. شدة عذاب الله لمن كفر وطغى .
٦. من رحمة الله بعباده أنه يخوفهم بالعذاب ليتوبوا .
٧. أن المسلم ينبغي أن يكون بين الخوف والرجاء .
(وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ (٥٦)) .
[الحجر : ٥١- ٥٦] .

(**وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ**) يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ (وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ) أي: عن تلك القصة العجيبة فإن في قصك عليهم أنباء الرسل وما جرى لهم ما يوجب لهم العبرة والاقتداء بهم، خصوصاً إبراهيم الخليل، الذي أمرنا الله أن نتبع ملته، وضيفه هم الملائكة الكرام أكرمه الله بأن جعلهم أضيافه.
-**قال القرطبي** : ضيفُ إبراهيم : الملائكة الذين بشروه بالولد وبهلاك قوم لوط.
-**وقال ابن عاشور** : و (ضيف إبراهيم) الملائكة الذين تشكلوا بشكل أناس غرباء مارّين ببيته.
كما قال تعالى في هود (وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَاهِيمَ بالبشرى قَالُواْ سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ) .
-**قال البقاعي** : والضيف هو المنضم إلى غيره لطلب القرى ، فهؤلاء سموا بهذا الاسم لأنهم على صورة الضيف ، فهو من دلالة التضمن .
(**إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلامًا**) أي: سلموا عليه فرد عليهم .
(**قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ**) أي: خائفون، لأنه لما دخلوا عليه وحسبهم ضيوفاً ذهب مسرعاً إلى بيته فأحضر لهم ضيافتهم، عجلاً

حنيذاً فقدمه إليهم، فلما رأى أيديهم لا تصل، إليه خاف منهم أن يكونوا لصوصاً أو نحوهم.
كما قال تعالى (فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَة) .
لم يبين تعالى في هذ الآية الكريمة هل رد إبراهيم السلام على الملائكة أولا لأنه لم يذكر هنا رده السلام عليهم وإنما قال عنه إنه قال لهم إنا منكم وجلون وبين في هود والذاريات أنه رد عليهم السلام بقوله في هود (قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ).
وقوله في الذاريات (إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ فَرَاغَ إِلى أَهْلِهِ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ) .
–قال البقاعي : الوجل : اضطراب النفس لتوقع ما يكره .
–قال ابن عطية : وإنما وجل إبراهيم عليه السلام منهم لما قدم إليهم العجل الحنيذ فلم يرهم يأكلون ، وكانت عندهم العلامة المؤمنة أكل الطعام ، وكذلك هو في غابر الدهر أمنة للنازل والمنزول به .
(**قَالُواْ**) له .
(**لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ**) وهو إسحاق عليه الصلاة والسلام، تضمنت هذه البشارة بأنه ذكر لا أنثى عليم أي: كثير العلم، وفي الآية الأخرى (وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ) .
–قال الشنقيطي : وهذا الغلام بين تعالى أنه هو إسحاق كما يوضح ذلك قوله في الذاريات (وَبَشَّرُوهُ بِغُلاَمٍ عَلَيمٍ فَأَقْبَلَتِ امرأته فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ قَالُواْ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الحكيم العليم) لأن كونها أقبلت في صرة أي صيحة وضجة وصكت وجهها أي لطمته قائلة إنها عجوز عقيم يدل على أن الولد المذكور هي أمه كما لا يخفى .
ويزيده إيضاحاً تصريحه تعالى ببشارتها هي بأنها تلده مصرحاً باسمه واسم ولده يعقوب وذلك في قوله تعالى في هود في القصة بعينها (وامرأته قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يا ويلتى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وهذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ) .
وقد حكى– سبحانه– هنا أن البشارة كانت له، وفي سورة هود أن البشارة كانت لامرأته، ومعنى ذلك أنها كانت لهما معا، إما في وقت واحد، وإما في وقتين متقاربين بأن بشروه هو أولا، ثم جاءت امرأته بعد ذلك فبشروها أيضا، ويشهد لذلك قوله تعالى (وَامْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَمِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ) .
(**قَالَ**) لهم متعجباً من هذه البشارة .
(**أَبَشَّرْتُمُونِي**) بالولد .
(**عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ**) الاستفهام للتعجب. كأنه عجب من أن يرزقه الله– تعالى– بغلام عليم بعد أن مسه الكبر، وبلغ سن الشيخوخة ، و «على» بمعنى مع .
أي: قال إبراهيم للملائكة، بعد أن بشروه بالولد، أبشرتموني بذلك مع أن الكبر قد أصابني ، والشيخوخة قد اعترتني فبأي شيء عجيب قد بشرتموني.
وتعجب إبراهيم إنما هو من كمال قدرة الله– تعالى– ونفاذ أمره، حيث وهبه هذا الغلام في تلك السن المتقدمة بالنسبة له ولامرأته، والتي جرت العادة أن لا يكون معها إنجاب الأولاد.
وقد حكى القرآن هذا التعجب على لسان امرأة إبراهيم في قوله تعالى (قالَتْ يا وَيْلَتى أَأَلِدُ وَأَنا عَجُوزٌ وَهذا بَعْلِي شَيْخاً، إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ) .
وصرح في هود بأن امرأته أيضاً قالت إنه شيخ كبير في قوله عنها (وهذا بَعْلِي شَيْخاً) كما صرح عنها هي أنها وقت البشرى عجوز كبيرة السن وذلك كقوله في هود (يا ويلتى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ) الآية، وقوله في الذاريات: (فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ

عَقِيمٌ).

وبين في موضع آخر عن نبيه إبراهيم أنه وقت هبة الله له ولده إسماعيل أنه كبير السن أيضاً وذلك قوله تعالى (الحمد للهِ الذي وَهَبَ لِي عَلَى الكبر إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدعآء) .

فإن قيل : كيف استبعد قدرة الله تعالى على خلق الولد منه في زمان الكبر وإنكار قدرة الله تعالى في هذا الموضع كفر. قال القاضي : أحسن ما قيل في الجواب عن ذلك أنه أراد أن يعرف أنه تعالى يعطيه الولد مع أنه يبقيه على صفة الشيخوخة أو يقلبه شاباً ، ثم يعطيه الولد ، والسبب في هذا الاستفهام أن العادة جارية بأنه لا يحصل الولد حال الشيخوخة التامة وإنما يحصل في حال الشباب.

(**قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ**) الذي لا شك فيه لأن الله على كل شيء قدير، وأنتم بالخصوص –يا أهل هذا البيت– رحمة الله وبركاته عليكم فلا يستغرب فضل الله وإحسانه إليكم.

(**فَلاَ تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ**) الذين يستبعدون وجود الخير، بل لا تزال راجيا لفضل الله وإحسانه، وبره وامتنانه .

(**قَالَ**) إبراهيم مجيباً لهم :

(**وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ**) الذين لا علم لهم بربهم، وكمال اقتداره وأما من أنعم الله عليه بالهداية والعلم العظيم، فلا سبيل إلى القنوط إليه لأنه يعرف من كثرة الأسباب والوسائل والطرق لرحمة الله شيئا كثيرا، ثم لما بشروه بهذه البشارة، عرف أنهم مرسلون لأمر مهم.

–قال البيضاوي : وكان تعجب إبراهيم عليه السلام، باعتبار العادة دون القدرة، فإن الله تعالى قادرَ على أن يخلق بشراً من غير أبوين، فكيف من شيخ فان وعجوز عاقر ؟ ولذلك أجابهم بذلك الجواب .

–وفي هذا تحريم القنوط من رحمة الله ، لأنه سوء ظنٍّ بالله ، **وذلك من وجهين** :

الوجه الأول : أنه طعن في قدرته سبحانه .

الوجه الثاني : أنه طعن في رحمته سبحانه .

عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر، فقال: (الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله). رواه البزار والطبراني بسند حسن

–قال الرازي : هذا الكلام حق ، لأن القنوط من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا عند الجهل بأمور :

أحدها : أن يجهل كونه تعالى قادراً عليه.

وثانيها ؛ أن يجهل كونه تعالى عالماً باحتياج ذلك العبد إليه.

وثالثها : أن يجهل كونه تعالى منزهاً عن البخل والحاجة والجهل فكل هذه الأمور سبب للضلال ، فلهذا المعنى قال (وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضآلون) .

–قال الخازن : فيه دليل على أن إبراهيم عليه السلام لم يكن من القانطين ، ولكنه استبعد حصول الولد على الكبر فظنت الملائكة أن به قنوطاً فنفى ذلك عن نفسه ، وأخبر أن القانط من رحمة الله تعالى من الضالين لأن القنوط من رحمة الله كبيرة ، كالأمن من مكر الله ولا يحصل إلا عند من يجهل كون الله تعالى قادراً على ما يريد ، ومن يجهل كونه سبحانه وتعالى عالماً بجميع المعلومات فكل هذه الأمور سبب للضلالة.

الفوائد :

١. أمر الله للنبي ﷺ أن يخبر قومه عن ضيوف إبراهيم من الملائكة .

٢. إثبات نبوة إبراهيم .

٣. مشروعية الضيافة .

٤. كرم إبراهيم .

٥. إثبات وجود الملائكة .

٦. مشروعية السلام عند الدخول على أهل البيت .

٧. استحباب بشارة المسلم .

٨. فضل إدخال السرور على المسلم .

٩. قدرة الله على كل شيء .

١٠. من آيات الله رزق إبراهيم الولد على كبره .

١١. فضل الله على إبراهيم .

١٢. تحريم القنوط من رحمة الله .

تنبيه :

كذلك يحرم الأمن من مكر الله :

وهو الغفلة عن عقوبته مع الإقامة على موجبها وهو المحرمات .

فهو من الكبائر .

قال تعالى (أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ)

وجه الدلالة من وجهين :

أحدهما : في قوله (أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ) لأنه استفهام استنكاري يتضمن ذمهم على ما اقترفوه ، والذم للفعل دليل على تحريمه ومنافاته لما ينبغي من إجلال الله وإعظامه .

والآخر : في قوله (إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُون) لأنه جعله سبباً لخسرانهم ، وما أنتج خُسراً فهو محرّم مباين لتعظيم الله ، فكل محرّم يوجب خُسْراً ، وكل طاعةٍ تورث ربحاً .

(قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُواْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٥٨) إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠) فَلَمَّا جَاء آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦٠) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٦٢) قَالُواْ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بَالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاء مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦) وَجَاء أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلاء ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَؤُلاء بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَـةً لِّلْمُؤمِنِينَ (٧٧)) .

[الحجر : ٥٧- ٧٧] .

(**قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ**) أي : قال إبراهيم : ما شأنكم وما أمركم الذي جئتم من أجله ؟ أيها الملائكة الكرام ؟

قال بعض العلماء : إنه علم أنه لو كان كمال المقصود إيصال البشارة لكان الواحد من الملائكة كافياً ، فلما رأى جمعاً من الملائكة علم أن لهم غرضاً آخر سوى إيصال البشارة فلا جرم قال (فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا المرسلون) .

(**قَالُواْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ**) أي : أرسلنا ربنا إلى قوم مشركين ضالين لإهلاكهم ، يعنون قوم لوط .

وإنما اقتصروا على هذا القدر لعلم إبراهيم عليه السلام بأن الملائكة إذا أرسلوا إلى المجرمين كان ذلك لإهلاكهم واستئصالهم وأيضاً فقولهم (إِلا ءالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ) يدل على أن المراد بذلك الإرسال إهلاك القوم.

(**إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ**) أي : إلا أتباعَ لوط وأهلَه المؤمنين ، فسننجيهم من ذلك العذاب أجمعين .

فالمراد من آل لوط أتباعه الذين كانوا على دينه.

(**إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ**) أي : إلا امرأة لوط ، فقد قدر الله بقاءها في العذاب مع الكفرة الهالكين .

قدرنا : قضينا وحكمنا . والغابر : الباقي .

-**قال القرطبي** : استثنى من آل لوط امرأته ، وكانت كافرة ، فالتحقت بالمجرمين في الهلاك .

-**وقال الخازن** : يعني لمن الباقين في العذاب .

كما قال تعالى في هود (قَالُواْ يالوط إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يصلوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ الليل وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امرأتك) .

وقوله في العنكبوت (وَقَالُواْ لاَ تَخَفْ وَلاَ تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امرأتك) .

وقوله (فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امرأته كَانَتْ مِنَ الغابرين) .

وقوله (فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عَجُوزاً فِي الغابرين) .

-**قال الآلوسي** : الظاهر أن قوله تعالى (إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنا ...) من كلام الملائكة، وأسندوا التقدير إلى أنفسهم- وهو فعل الله- سبحانه- لما لهم من القرب والاختصاص، وهذا كما يقول أحد حاشية السلطان: أمرنا بكذا.. والآمر في الحقيقة هو السلطان.

وقيل- ولا يخفى بعده-: هو من كلام الله- تعالى- فلا يحتاج إلى تأويل، وكذا لا يحتاج إلى تأويل إذا أريد بالتقدير العلم.

تنبيه :

قوله تعالى في هود (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ الليل وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امرأتك) .

قَرَأَهُ جُمْهُورُ الْقُرَّاءِ إِلَّا امْرَأَتَكَ، بِالنَّصْبِ، وَعَلَيْهِ فَالْأَمْرُ وَاضِحٌ ; لِأَنَّهُ اسْتِثْنَاءٌ مِنَ الْأَهْلِ، أَيْ أَسْرِ بِأَهْلِكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ فَلَا تُسْرِ بِهَا، وَاتْرُكْهَا فِي قَوْمِهَا فَإِنَّهَا هَالِكَةٌ مَعَهُمْ.

وَيَدُلُّ لِهَذَا الْوَجْهِ قَوْلُهُ فِيهَا فِي مَوَاضِعَ (كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ) ، وَالْغَابِرُ: الْبَاقِي، أَيْ مِنَ الْبَاقِينَ فِي الْهَلَاكِ.

ويحتمل أن يكون من قوله (وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ) أي: فإنها ستلتفت فيصيبها ما أصابهم.

قال ابن كثير: والأظهر أنها لم تخرج من البلد، ولا أعلمها لوط، بل بقيت معهم.

(**فَلَمَّا جَاء آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ**) أي : فلما جاء ووصل رسل الله لوطاً .

والآية الكريمة معطوفة على كلام محذوف يفهم من السياق، والتقدير: وخرج الملائكة من عند إبراهيم- بعد أن بشروه بغلامه، وبعد أن أخبروه بوجهتهم- فاتجهوا إلى المدينة التي يسكنها لوط عليه السلام وقومه.

وقال (فَلَمَّا جاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ...) مع أن المجيء كان للوط عليه السلام والخطاب كان معه، تشريفاً وتكريماً للمؤمنين من قوم لوط، فكأنهم كانوا حاضرين ومشاهدين لوجود الملائكة بينهم، ولما دار بينهم وبين لوط عليه السلام .

(**قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ**) أي : قال لهم : إنكم قوم غرباء ، لا أعرفكم ، فماذا تريدون ؟

-قال الخازن : وإنما قال هذه المقالة لوط لأنهم دخلوا عليه وهم في زي شبان مردان حسان الوجوه ، فخاف أن يهجم عليهم قومه فلهذا السبب قال هذه المقالة.

-قال الشنقيطي : بيّن تعالى في هذه الآية الكريمة أن لوطاً عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام لما جاءه الملائكة المرسلون لإهلاك قومه قال لهم إنكم قوم منكرون. وصرح في مواضع أخر أنه حصلت له مساءة بمجيئهم وأنه ضاق ذرعاً بذلك :

كقوله في هود (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سياء بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ) .

وقوله في العنكبوت (وَلَمَّآ أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً) .

(**قَالُواْ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ**) أي قالوا له : بل نحن رسل الله ، جئناك بما كان فيه قومك يشكون فيه ، وهو نزول العذاب الذي وعدتهم به .

(**وَأَتَيْنَاكَ بَالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ**) أي : أتيناك بالحق اليقيني من عذابهم ، وإنا لصادقون فيما نقول .

(**فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ**) أي : اخرج من بينهم بأهلك في طائفة من الليل حين تنام العيون .

القطع الطائفة من الليل .

وَلَمْ يُبَيِّنْ هُنَا هَلْ هُوَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، أَوْ وَسَطِهِ أَوْ أَوَّلِهِ، وَلَكِنَّهُ بَيَّنَ فِي «الْقَمَرِ» أَنَّ ذَلِكَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ وَقْتَ السَّحَرِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ (إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ) .

وبيّن هنا أنه أمره أَنْ يَكُونَ مِنْ وَرَائِهِمْ وَهُمْ أَمَامَهُ (... وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ) .

(**وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ**) أي : كن من ورائهم ، وسر خلفهم لتطمئن عليهم .

-قال ابن كثير : يذكر الله- تعالى- عن الملائكة أنهم أمروا لوطا أن يسرى بأهله بعد مضى جانب من الليل، وأن يكون لوط عليه السلام يمشى وراءهم ليكون أحفظ لهم.

وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى في الغزاة يزجى الضعيف، ويحمل المنقطع .

(**وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ**) أي : لا يلتفت أحد منكم وراءه ، لئلا يرى عظيم ما ينزل بهم فيرتا ع .

–قال ابن عطية : ونهوا عن النظر مخافة العقلنة وتعلق النفس بمن خلف ، وقيل بل لئلا تتفطر قلوبهم من معاينة ما جرى على القرية في رفعها وطرحها.

–قال أبو السعود (وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ) أي منك ومنهم (أَحَدٌ) : فيرى ما وراءه من الهول فلا يطيقه ، أو يصيبه ما أصابهم ، أو ولا ينصرفْ منكم أحدٌ ولا يتخلفْ لغرض فيصيبه العذاب ، وقيل : نُهوا عن ذلك ليوطنوا أنفسهم على المهاجرة ، أو هو نهي عن ربط القلب بما خلّفوه ، أو هو للإسراع في السير فإن الملتفتَ قلما يخلو عن أدنى وقفة .

(**وَامْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ**) إرشاد من الملائكة للوط عليه السلام إلى الجهة التي أمره الله– تعالى– بالتوجه إليها.

أي: وامضوا في سيركم إلى الجهة التي أمركم الله– تعالى– بالسير إليها، مبتعدين عن ديار القوم المجرمين، تصحبكم رعاية الله وحمايته.

قيل: أمروا بالتوجه إلى بلاد الشام، وقيل إلى الأردن، وقيل إلى مصر.

(**وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاء مَقْطُوعٌ**) أي: أوحينا إلى (لوط) ذلك الأمر العظيم ، أن أولئك المجرمين سيُستأصلون عن آخرهم ، حتى لا يبقى منهم أحد .

(**مُّصْبِحِينَ**) أي : إذا دخل الصباح تم هلاكهم واستئصالهم .

–قال الخازن : يعني أن هؤلاء القوم يستأصلون عن آخرهم بالعذاب وقت الصبح وإنما أبهم الأمر الذي قضاه عليهم أولاً ، وفسر ثانياً تفخيماً له وتعظيماً لشأنه. أ هـ

(**وَجَاء أَهْلُ الْمَدِينَةِ**) أي : المدينة التي فيها قوم لوط .

(**يَسْتَبْشِرُونَ**) أي : يبشر بعضهم بعضاً بأضياف لوط وصباحة وجوههم واقتدارهم عليهم وذلك لقصدهم فعل الفاحشة فيهم فجاءوا حتى وصلوا إلى بيت لوط فجعلوا يعالجون لوطاً على أضيافه ولوط يستعيذ منهم .

وهذا التعبير الذي صورته الآية الكريمة، يدل دلالة واضحة على أن القوم قد وصلوا إلى الدرك الأسفل من الانتكاس والشذوذ وانعدام الحياء ... إنهم لا يأتون لارتكاب المنكر فردا أو أفرادا، وإنما يأتون جميعاً– أهل المدينة– وفي فرح وسرور، وفي الجهر والعلانية، لا في السر والخفاء ...ولأى غرض يأتون؟ إنهم يأتون لارتكاب الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين.

وقال تعالى في سورة هود (وَجَاءهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ) أي : وجاء قومُ لوط يسرعون المشي إليه لطلب الفاحشة .

قَوْلُهُ: يُهْرَعُونَ ، أَيْ: يُسْرِعُونَ وَيُهَرْوِلُونَ مِنْ فَرَحِهِمْ بِذَلِكَ .

ومرادهم فعل الفاحشة : كما قال تعالى في سورة هود (وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ) أي : كانوا مِن قبل مجيئهم يأتون الرجال شهوة دون النساء .

وقد ذكر الله تعالى أن قوم لوط كانوا أول من ارتكب هذه الفعلة القبيحة .

قال تعالى (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ) .

وقد كانوا يتجاهرون بها :

قال تعالى في سورة النمل (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ).

وقال تعالى في سورة العنكبوت (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ

لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ...).

–قال الرازي : اعلم أن المراد بأهل المدينة قوم لوط ، وليس في الآية دليل على المكان الذي جاؤوه إلا أن القصة تدل على أنهم جاؤوا دار لوط.

قيل : إن الملائكة لما كانوا في غاية الحسن اشتهر خبرهم حتى وصل إلى قوم لوط.

وقيل : امرأة لوط أخبرتهم بذلك ، وبالجملة فالقوم قالوا : نزل بلوط ثلاثة من المرد ما رأينا قط أصبح وجهاً ولا أحسن شكلاً منهم فذهبوا إلى دار لوط طلبها منهم لأولئك المرد والاستبشار إظهار السرور فقال لهم لوط لما قصدوا أضيافه كلامين :

(**قَالَ إِنَّ هَؤُلاء ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ**) أي : هؤلاء ضيوفي فلا تقصدوهم بسوء ، فتُلحقوا بي العار وتفضحوني أمامهم .

(**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلاَ تُخْزُونِ**) أي : خافوا الله أن يحلَّ بكم عقابه، ولا تهينوني بالتعرض لهم بالمكروه .

(**قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ**) أي : قالوا ألم نمنعك عن ضيافة أحد؟

–قال الرازي: المعنى ألسنا قد نهيناك أن تكلمنا في أحدٍ من الناس إذا قصدناه بالفاحشة؟

–قال الخازن : قوله تعالى (أولم ننهك عن العالمين) يعني أولم ننهك عن أن تضيف أحداً من العالمين.

وقيل : معناه أو لم ننهك أن تدخل الغرباء إلى بيتك ، فانا نريد أن نركب منهم الفاحشة .

وقيل : معناه ألسنا قد نهيناك أن تكلمنا في أحد من العالمين إذا قصدناه بالفاحشة.

(**قَالَ هَؤُلاء بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ**) قيل : المراد بناته من صلبه ، وقيل : المراد نساء قومه ، لأن رسول الأمة يكون كالأب لهم وهو كقوله تعالى (النبي أولى بالمؤمنين مِنْ أَنْفُسِهِمْ وأزواجه أمهاتهم) وفي قراءة أبي وهو أب لهم .

–قال ابن كثير : يرشد لوطا– عليه السلام– قومه إلى نسائهم فإن النبي للأمة بمنزلة الوالد، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم، كما قال تعالى في آية أخرى: أَتَأْتُونَ الذُّكْرانَ مِنَ الْعالَمِينَ. وَتَذَرُونَ ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ .

ورجحه الرازي وقال : وهذا القول عندي هو المختار، ويدل عليه وجوه :

منها: أنه قال هؤلاء بناتي.. وبناته اللاتي من صلبه لا تكفي هذا الجمع العظيم، أما نساء أمته ففيهم كفاية للكل .

ومنها: أنه صحت الرواية أنه كان له بنتان وهما : نتا وزاعورا ، وإطلاق لفظ البنات على البنتين لا يجوز، لما ثبت أن أقل الجمع ثلاثة .

والمعنى: أن لوطا عليه السلام لما رأى هيجان قومه، وإصرارهم على ارتكاب الفاحشة مع ضيوفه، قال لهم على سبيل الإرشاد إلى ما يشبع الفطرة السليمة: يا قوم هؤلاء نساؤكم اللائي هن بمنزلة بناتي، فاقضوا معهن شهوتكم إن كنتم فاعلين لما أرشدكم إليه من توجيهات وآداب. (التفسير الوسيط) .

–قال الخازن: وهذا القول هو الصحيح وأشبه بالصواب إن شاء الله تعالى والدليل عليه: أن بنات لوط كانتا اثنتين وليستا بكافيتين للجماعة، وليس من المروءة أن يعرض الرجل بناته على أعدائه ليزوجهن إياهم فكيف يليق ذلك بمنصب الأنبياء أن يعرضوا بناتهم على الكفار.

–وقال الشنقيطي : ... الْقَوْلُ الثَّالِثُ: أَنَّ الْمُرَادَ بِالْبَنَاتِ: جَمِيعُ نِسَاءِ قَوْمِهِ .

لِأَنَّ نَبِيَّ الْقَوْمِ أَبٌ دِينِيٌّ لَهُمْ .

كَمَا يَدُلُّ لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي نَبِيِّنَا ﷺ (النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ) وَفِي قِرَاءَةِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ: «وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ» وَرُوِيَ نَحْوُهَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَبِهَذَا الْقَوْلِ قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ.

قال تعالى عنه أنه قال لهم (أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ. وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ).

–قال أبو حيان : والظاهر أنّ هذا المجيء ومحاورته مع قومه في حق أضيافه ، وعرضه بناته عليهم ، كان ذلك كله قبل إعلامه بهلاك قومه وعلمه بأنهم رسل الله ، ولذلك سماهم ضيفان خوف الفضيحة ، لأجل تعاطيهم ما لا يجوز من الفعل القبيح.

وقد جاء ذلك مرتباً هكذا في هود ، والواو لا ترتب .... قال ابن عطية : ويحتمل أن يكون المجيء والمحاورة بعد علمه بهلاكهم ، وحاور تلك المحاورة على جهة التكتم عنهم ، والإملاء لهم ، والتربص بهم . انتهى.

ونهاهم عن فضحهم إياه لأنّ من أساء إلى ضيفه أو جاره فقد أساء إليه.

(**لَعَمْرُكَ**) جمهور المفسرين أنه كلام معترض بين أجزاء قصة لوط ﷺ مع قومه، لبيان أن الموعظة لا تجدى مع القوم الغاوين، ولتسلية الرسول ﷺ عما أصابه من سفهاء قومه.

فالخطاب فيه للنبي ﷺ واللام في «لعمرك» لام القسم، والمقسم به حياته ﷺ .

(**إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ**) والمعنى: بحق حياتك– أيها الرسول الكريم– إن هؤلاء المكذبين لك، لفي غفلتهم وغوايتهم يترددون ويتحيرون، شأنهم في ذلك شأن الضالين من قبلهم كقوم لوط وقوم شعيب وقوم صالح، وغيرهم من المتكبرين في الأرض بغير الحق..

(**فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ**) أي : أخذتهم صيحةُ العذاب المهلكة المدمرة ، وقت شروق الشمس .

(**فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ**) أي : أنزلنا عليهم حجارة كالمطر ، من طين متحجر فهلكوا جميعاً

هذه كيفية هلاك قوم لوط :

رفع الله قراهم فجعل عاليها سافلها، ثم أمطر عليهم حجارة من سجيل منضود.

قال تعالى (فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ).

وقال تعالى (فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ. مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ).

وقال تعالى (لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ. مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ).

فقوله تعالى (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ) والتحقيقُ: أن السجيلَ: أنه الطينُ؛ لأَنَّ اللَّهَ قال (لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ طِينٍ) وخيرُ ما يُفَسِّرُ القرآنَ القرآنُ، إلا أنه طينٌ مشويٌّ بالنارِ، شديدُ الحرارةِ، لا يأتي على شيءٍ إلا خَرَقَهُ.

(مَّنضُودٍ) أي: مجعول بعضه فوق بعض.

(مسومة) أي: مجعولاً فيها علامة تميزها، قيل: على كل حجر اسم من يرمي به ، وقيل : عليها سيما لا تشاكل حجارة الأرض .

وصف الله تعالى الحجارة التي رمى بها قوم لوط بثلاثة صفات:

الصفة الأولى: كونها من سجيل.

الصفة الثانية: منضود.

لصفة الثالثة: مسومة.

تنبيه :

قوله تعالى في سورة هود (وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ).

اختلف العلماء في هذه الآية على قولين:

القول الأول: أي وما هذه القرى المهلكة ببعيدة عن قومك (كفار قريش)، فإنهم يمرون عليها في أسفارهم أفلا يعتبرون.

كما قال تعالى (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)
وقال تعالى (وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ) .
وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ فَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: وَمَا هِيَ رَاجِعٌ إِلَى دِيَارِ قَوْمِ لُوطٍ الْمَفْهُومَةِ مِنَ الْمَقَامِ.

والثاني: الضمير يعود على الحجارة .

أي : وَمَا تِلْكَ الْحِجَارَةُ الَّتِي أُمْطِرَتْ عَلَى قَوْمِ لُوطٍ بِبَعِيدٍ مِنَ الظَّالِمِينَ لِلْفَاعِلِينَ مِثْلَ فِعْلِهِمْ، فَهُوَ تَهْدِيدٌ لِمُشْرِكِي الْعَرَبِ كَالَّذِي قَبْلَهُ.

وَمِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا) . فَإِنَّ قَوْلَهُ (وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا) ظَاهِرٌ جِدًّا فِي ذَلِكَ، وَالْآيَاتُ بِنَحْوِ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ.

(**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ**) أي : فيما حل بهم من الدمار والعذاب ، لدلالات وعلامات للمعتبرين ، المتأملين بعين البصر والبصيرة .

–قال أبو حيان : التوسم تفعل من الوسم ، هي العلامة التي يستدل بها على مطلوب غيرها ، يقال : توسم فيه الخير إذا رأى ميسم ذلك.

وقال عبد الله بن رواحة في رسول الله ﷺ :

إني توسمت فيك الخير أجمعه . . . والله يعلم أني ثابت البصر

وقال الشاعر :

توسمت لما أن رأيت مهابة . . . عليه وقلت المرء من آل هاشم

واتسم الرجل جعل لنفسه علامة يعرف بها ، وتوسم الرجل طلب كلاء الوسمي.

وأصل التوسم التثبت والتفكر ، مأخوذ من الوسم وهو التأثير بحديدة في جلد البعير أو غيره.

(**وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ**) أي : وإن هذه المساكن التي كان يسكنها هؤلاء المجرمون، لبطريق ثابت واضح يسلكه الناس، ويراه كل مجتاز له وهو في سفره من الحجاز إلى الشام .

كما قال تعالى (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ. وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُون) .

والمقصود تذكير كفار قريش وغيرهم بعاقبة الظالمين، حتى يقلعوا عن كفرهم وجحودهم، وحتى يعتبروا ويتعظوا، ويدخلوا مع الداخلين في دين الإسلام.

–قال الخازن : والمعنى : أن آثار ما أنزل الله بهذه القرى من عذابه وغضبه لبسبيل مقيم ثابت لم يدثر ولم يخف ، والذين يمرون عليها من الحجاز إلى الشام يشاهدون ذلك ويرون أثره .

(**إِنَّ فِي ذَلِكَ**) يعني الذي ذكر من عذاب قوم لوط ، وما أنزل بهم .

(**لآيَةً لِّلْمُؤمِنِينَ**) بالله حق الإيمان .

الفوائد :

١. إرسال الله الرسل لإهلاك المجرمين .

٢. من آيات الله نجاة أهل الإيمان .

٣. من آيات الله هلاك الظالمين .

٤. من الظالمين زوجة لوط ، فإنها كانت كافرة فهلكت مع قومها .

٥. حكمة الله في كفر زوجة لوط .

٦. من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه .

٧. لا تنفع القرابة ولا الأنساب إذا عدم الإيمان .

٨. من آيات الله هلاك المكذبين .

٩. -تحريم هذه الجريمة القبيحة الخسيسة .

١٠. سنة الله في قلة من يؤمن مع الأنبياء .

١١. جرأة وتمرد هؤلاء على الفساد ، حيث جاؤوا مسرعين للفساد .

١٢. جرت سنة الله أنه إذا أراد إهلاك قوم نبي عصوه أن يأمره بالخروج والانفصال عنهم، لينجيه ويستأصلهم.

١٣. أن المرأة الكافرة قد تكون تحت الرجل المؤمن .

١٤. تهديد لكل ظالم من عقوبة الله .

١٥. الإشارة إلى أن الإنسان إذا رأى الشيء بعينه كان ذلك أقوى يقيناً مما إذا أخبر به .

(**وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (٧٨) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ (٧٩)**) .

[الحجر : ٧٨- ٧٩] .

(**وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ**) وهم قوم شعيب .

(**لَظَالِمِينَ**) بشركهم بالله تعالى .

(**فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ**) أي : أهلكناهم ودمرناهم بالعذاب الشديد .

(**وَإِنَّهُمَا**) أي : مسكن قوم لوط ، ومساكن قوم شعيب .

(**لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ**) أي : لبطريق واضح يأتم به أهل مكة في سفرهم من بلادهم إلى بلاد الشام .

فائدة : ١

أصحاب الأيكة، هم قوم شعيب- عليه السلام-، والأيك الشجر الكثير الملتف واحدته أيكة- كتمر وتمره-.

والمراد بها البقعة الكثيرة الأشجار التي كانت فيها مساكنهم، قرب مدين قرية شعيب- عليه السلام-.

وجمهور العلماء على أن أهل مدين وأصحاب الأيكة قبيلة واحدة، وأرسل الله- تعالى- إليهم جميعا شعيبا- عليه السلام- لأمرهم بإخلاص العبادة لله- تعالى-، ونهيهم عن تطفيف الكيل والميزان، وعن قطع الطريق ..

-قال ابن كثير : كَانَ ظُلْمُهُمْ بِشِرْكِهِمْ بِاللَّهِ وَقَطْعِهِمُ الطَّرِيقَ وَنَقْصِهِمُ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، فَانْتَقَمَ اللَّهُ مِنْهُمْ بِالصَّيْحَةِ وَالرَّجْفَةِ وَعَذَابِ يَوْمِ الظُّلَّةِ، وَقَدْ كَانُوا قَرِيبًا مِنْ قَوْمِ لُوطٍ بَعْدَهُمْ فِي الزَّمَانِ، وَمُسَامِتِينَ لَهُمْ فِي الْمَكَانِ ..... وَلِهَذَا لَمَّا أَنْذَرَ شُعَيْبٌ قَوْمَهُ قَالَ فِي نِذَارَتِهِ إِيَّاهُمْ (وما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ) .

فائدة : ٢

والعلماءُ مختلفونَ: هل أصحابُ الأيكةِ هم مَدْيَنُ أنفسُهم فيكون شعيبٌ أُرْسِلَ إلى أُمَّةٍ واحدةٍ، أو مدينُ أمةٌ وأصحابُ الأيكةِ أمةٌ أخرى، فيكون شعيبٌ قد أُرْسِلَ إلى أُمَّتَيْنِ؟

هذا خلافٌ معروفٌ بَيْنَ العلماءِ .

وأكثرُ أهلِ العلمِ على أنهم أمةٌ واحدةٌ كانوا يعبدونَ أيكةً، أي: شجرًا مُلْتَفًّا، وأن اللهَ سماهم مرةً بنسبهم (مدين) ومرةً أضافهم إلى الأيكةِ التي يعبدونَها. وجزمَ بصحةِ هذا ابنُ كثيرٍ في تاريخِه وتفسيرِه وَمِمَّنِ اشتهر عنه أنهم أُمَّتَانِ قتادةُ وجماعةٌ، وهو خلافٌ معروفٌ.

والذين قالوا: إنهما أُمَّتَانِ قالوا: في (مدين) قال: إنه أَخُوهُمْ حيث قال (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا) أما أصحابُ الأيكةِ فلم يَقُلْ: إنه أخوهم بل قال (كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ) ولم يقل: أخوهم شعيبٌ.

وَأُجِيبَ عن هذا بأنه لَمَّا ذَكَرَ مَدْيَنَ ذَكَرَ الجدَّ الذي يشملُ القبيلة وَمِنْ جُمْلَتِهَا شعيبٌ، ذكر أنه أخوهم من النسبِ. أما قولُه (أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ) فمعناه: أنهم يعبدونَها، وَلَمَّا ذَكَرَهُمْ في مقامِ الشركِ وعبادةِ غيرِ اللهِ لم يُدْخِلْ معهم شعيبًا في ذلك وهم أمةٌ واحدةٌ. هكذا قاله بعضُهم وَاللَّهُ أعلمُ.

قال ابن كثير: قوله تعالى (كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠)).

هؤلاء -أعني أصحاب الأيكة- هم أهل مدين على الصحيح. وكان نبي الله شعيب من أنفسهم، وإنما لم يقل هنا أخوهم شعيب؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجرة. وقيل: شجر ملتف كالغَيضة، كانوا يعبدونها؛ فلهذا لما قال: كذب أصحاب الأيكة المرسلين، لم يقل: "إذ قال لهم أخوهم شعيب"، وإنما قال (إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ)، فقطع نسبة الأخوة بينهم؛ للمعنى الذي نسبوا إليه، وإن كان أخاهم نسبا. ومن الناس مَنْ لم يتفطن لهذه النكتة، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين، فزعم أن شعيبًا عليه السلام، بعثه الله إلى أمتين، ومنهم مَنْ قال: ثلاث أمم.

وقال أيضاً : وكان أهل مدين كفاراً يقطعون السبيل ويخيفون المارة، ويعبدون الأيكة، وهى شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها، وكانوا من أسوإِ الناس معاملة ; يبخسون المكيال والميزان، ويطففون فيهما، يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص .

فبعث الله فيهم رجلاً منهم وهو رسول الله شعيب عليه السلام فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطى هذه الأفاعيل القبيحة من بخس الناس أشياءهم وإخافتهم لهم في سبلهم وطرقاتهم، فآمن به بعضهم وكفر اكثرهم، حتى أحل الله بهم البأس الشديد، وهو الولي الحميد.

قال تعالى في سورة الأعراف (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥) وَلاَ تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) .

وقال تعالى في سورة هود (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ) .

فائدة : ٣

وقد جاءهم ببينة .

كما قال تعالى في سورة الأعراف (قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ) أي: قد أقام الله الحجج والبينات على صدق ما جئتكم به.

والمراد بالبينة ههنا المعجزة، لأنه لا بد لمدعي النبوة منها، وإلا لكان متنبئاً لا نبياً، فهذه الآية دلت على أنه حصلت له معجزة دالة على صدقه.

قال الآلوسي: قوله تعالى (قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ) أي: معجزة عظيمة ظاهرة من مالك أموركم.
ولم تذكر معجزته ﷺ في القرآن العظيم كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا ﷺ والأنبياء عليهم السلام فيه، والقول بأنه لم يكن له عليه السلام معجزة غلط لأن الفاء في قوله سبحانه (فَأَوْفُوا الكيل والميزان) لترتيب الأمر على مجيء البينة، واحتمال كونها عاطفة على (اعبدوا) بعيد، وإن كانت عبادة الله تعالى موجبة للاجتناب عن المناهي التي معظمها بعد الكفر البخس.

فائدة : ٤

هلاكهم :

الْهَلَاكُ الَّذِي أَصَابَ قَوْمَ شُعَيْبٍ ذَكَرَ تَعَالَى فِي الْأَعْرَافِ أَنَّهُ رَجْفَةٌ، وَذَكَرَ فِي هُودٍ أَنَّهُ صَيْحَةٌ (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) وَذَكَرَ فِي الشُّعَرَاءِ أَنَّهُ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ، قال تعالى (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ).
قال ابن كثير : وَقَدِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ كُلُّهُ أَصَابَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ وَهِيَ سَحَابَةٌ أَظَلَّتْهُمْ فِيهَا شَرَرٌ مِنْ نَارٍ وَلَهَبٍ وَوَهَجٍ عَظِيمٍ، ثُمَّ جَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، وَرَجْفَةٌ مِنَ الْأَرْضِ شَدِيدَةٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ، فَزَهَقَتِ الْأَرْوَاحُ، وَفَاضَتِ النُّفُوسُ، وَخَمَدَتِ الْأَجْسَامُ.
اهـ مِنْهُ.

فائدة : ٥

أن الظلم – وهو الشرك بالله – سبب لهلاك الأمم وعذابهم .
قال تعالى (وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً).
وقال تعالى (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا).
وقال تعالى (وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ).
وقال تعالى (وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ).

(وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (٨٤)) .
[الحجر : ٨٠-٨٤] .

(وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ) أصحاب الحجر هم (ثمود) قوم صالح ، ومساكنهم بالحجر .
–قال الخازن : قال المفسرون : الحجر اسم واد كان يسكنه ثمود وهو معروف بين المدينة النبوية والشام وآثاره موجودة باقية يمر عليها ركب الشام إلى الحجار ، وأهل الحجاز إلى الشام وأراد بالمرسلين صالحاً وحده .
أرسل الله إليهم نبيه صالحاً عليه السلام فكذبوه .
كما قال تعالى (كَذَّبَتْ ثَمُودُ المرسلين إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ) .
وقوله تعالى (فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا) .
وقوله تعالى (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بالنذر فقالوا أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ) .
ومن كذب رسولاً فقد كذب جميع الرسل .
قال المفسرون : والمراد بالمرسَلين : صالح وحده ، لأنه من كذَّب نبياً فقد كذَّب الكُلّ.
لأن دعوة جميع الرسل واحدة ، وهي تحقيق معنى " لا إله إلا الله "كما بينه تعالى بأدلة عمومية وخصوصية.

قال معمماً لجميعهم (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نوحي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ أَنَاْ فاعبدون) .

وقال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) .

وقال تعالى (وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرحمن آلِهَةً يُعْبَدُونَ) .

–قال السعدي : (كذبوا المرسلين) أي: كذبوا صالحاً ، ومن كذب رسولاً فقد كذب سائر الرسل، لاتفاق دعوتهم، وليس تكذيب بعضهم لشخصه بل لما جاء به من الحق الذي اشترك جميع الرسل بالإتيان به .

(**وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا**) الدالة على صدق صالح وصحة ما جاءهم به ، وأعظمها وأظهرها الناقة التي أخرجها الله لهم .

كما قال تعالى (فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين قَالَ هذه نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ) .

وقوله تعالى (قَدْ جَآءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هذه نَاقَةُ الله لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ الله وَلاَ تَمَسُّوهَا بسوء) .

وقوله تعالى (وَآتَيْنَا ثَمُودَ الناقة مُبْصِرَةً) .

وقوله تعالى (إِنَّا مُرْسِلُو الناقة فِتْنَةً لَّهُمْ فارتقبهم واصطبر) .

وقوله تعالى (وياقوم هذه نَاقَةُ الله لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ الله وَلاَ تَمَسُّوهَا بسوء فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ) .

–قال الخازن : (وآتيناهم آياتنا) يعني الناقة وولدها والآيات التي كانت في الناقة خروجها من الصخرة وعظم جثتها وقرب ولادها وغزارة لبنها ، وإنما أضاف الآيات إليهم وإن كانت لصالح ، لأنه مرسل إليهم بهذه الآيات .

كما قال تعالى (وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا) .

وكانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية.

قال تعالى عنهم أنهم قالوا (فأتنا بآية إن كنت من الصادقين).

وفي سورة الشعراء (فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ).

وقال تعالى (وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا).

أي أن قوم ثمود طلبوا من صالح آية ناقة تخرج من صخرة عينوها، فدعا صالح عليه السلام ربه فأخرج لهم منها ناقة على ما سألوا.

– مبصرة: أي أن هذه الآية مبصرة: أي بينة تجعلهم يبصرون الحق واضحاً لا لبس فيه، دالة على وحدانية من خلقها وصدق رسوله الذي أجيب دعاؤه فيها.

– ونهاهم نبي ﷺ صالح عن قتلها.

قال تعالى: (وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ).

وقال تعالى في سورة هود (فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ).

وقال تعالى في سورة الشعراء (وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ).

أي: لا تتعرضوا لها بأي نوع من أنواع الضرر، لا بالعقر ولا بالضرب، ولا بغيرهما، بل اتركوها ترعى وتستقي من فضل الله عليها وعليكم.

(**فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ**) أي : فكانوا عن ما آتاهم الله من الآيات معرضين عن التأمل والتفكر فيها بقلوبهم .

ومن ذلك عقرهم للناقة .

قال تعالى (فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ).

وقال تعالى في سورة الشعراء (فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ).

وقال تعالى (فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) .

أي: نحروا الناقة، واستكبروا عن امتثال أمر الله .

(وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين) أي: جئنا يا صالح بما تعدنا من العذاب الذي تخوفنا به، إن كنت حقاً رسولاً، قالوا ذلك استهزاء به وتعجيزاً.

- قال ابن كثير: فجمعوا في كلامهم هذا بين كفر بليغ من وجوه:

منها: أنهم خالفوا الله ورسوله في ارتكابهم النهي الأكيد في عقر الناقة التي جعلها الله لهم آية.

ومنها: أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم فاستحقوه من وجهين: أحدهما: الشرط عليهم في قوله [ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب]، والثاني: استعجالهم على ذلك.

ومنها: أنهم كذبوا الرسول الذي قد قام الدليل القاطع على نبوته وصدقه، وهم يعلمون ذلك علماً جازماً، ولكن حملهم الكفر والضلال والعناد على استبعاد الحق ووقوع العذاب بهم.

- فعقروا الناقة: كما قال تعالى (فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ).

وقال تعالى في سورة الشعراء (فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ).

(**وَكَانُواْ**) من كثرة إنعام الله عليهم .

(**يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا**) ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن أصحاب الحجر وهو ثمود صالح كانوا آمنين في أوطانهم ، وكانوا ينحتون الجبال بيوتاً.

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر :

كقوله تعالى (أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَآ آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجبال بُيُوتاً فَارِهِين) .

وقوله تعالى (واذكروا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأرض تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الجبال بُيُوتاً فاذكروا آلآءَ الله) .

وقوله (وَثَمُودَ الذين جَابُواْ الصخر بالواد) أي قطعوا الصخر بنحته بيوتاً. . (أضواء البيان) .

(**آمِنِينَ**) قيل : معناه من انهدامها ، وقيل من حوادث الدنيا ، وقيل من الموت لاغترارهم بطول الأعمال.

قال ابن عطية : وهذا كله ضعيف ، وأصح ما يظهر في ذلك أنهم كانوا يأمنون عواقب الآخرة. فكانوا لا يعملون بحسبها ، بل كانوا يعملون بحسب الأمن منها .

-**قال ابن عطية** : يصف قوم صالح بشدة النظر للدنيا والتكسب منها فذكر من ذلك مثالاً أن بيوتهم كانوا ينحتونها من حجر الجبال ، و" النحت " النقر بالمعاول ونحوها في الحجارة والعود ونحوه .

(**فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ**) أي : فكفروا نعمة الله وكذبوا صالحاً وعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم .

كما قال تعالى (فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) .

قالهم صالح لما عقروها ما أخبر تعالى عنه أنه قال (فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ).

- قال ابن كثير: وأصبح ثمود يوم الخميس وهو اليوم الأول من أيام النظرة ووجوههم مصفرة كما وعدهم صالح عليه السلام، وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل وهو يوم الجمعة ووجوههم محمرة، وأصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت ووجوههم مسودة، فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه - عياذاً بالله من ذلك - لا يدرون ماذا يفعل بهم ولا كيف يأتيهم العذاب، وأشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من اسفل منهم، ففاضت الأرواح وأزهقت النفوس في ساعة واحدة [فأصبحوا في دارهم جاثمين] أي صرعى لا أرواح فيهم.

قال تعالى (فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين).

وقال تعالى (وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين).

وقال تعالى (فأخذتهم الصيحة مصبحين).

وقال تعالى (إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر).

- قال ابن كثير: أي بادوا عن آخرهم لم تبق منهم باقية وخمدوا وهمدوا كما يهمد يبيس الزرع والنبات.

- قوله تعالى (فأخذتهم الرجفة) قال الفراء والزجاج: هي الزلزلة الشديدة.

- قال الشنقيطي: الرجفة هي الاضطراب الشديد، أي: رجفت بهم الأرض واضطربت اضطراباً شديداً.

ولا منافاة: فالظاهر أن الملك لما صاح بهم اضطربت الأرض من تحتهم فأهلكهم الله بهما جميعاً.

ونجى الله صالحاً ومن معه:

قال تعالى (فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا).

(**فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ**) فما نفعهم ولا دفع عنهم العذاب أو رفعه عنهم كسبهم من الأموال والخيرات التي أدرها الله عليهم من الزروع والتجارات والصناعات والبيوت التي حصنوها وشيدوها شيئاً من عقاب الله .

–قال الرازي : أي ما دفع عنهم الضر والبلاء ما كانوا يعملون من نحت تلك الجبال ومن جمع تلك الأموال .

–قال القرطبي : (فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ) من الأموال والحصون في الجبال ، ولا ما أعطوه من القوة.

–وقال السعدي : لأن أمر الله إذا جاء لا يرده كثرة جنود، ولا قوة أنصار ولا غزارة أموال.

الفوائد :

١–أن جميع الأنبياء دعوتهم واحدة. وهي الدعوة إلى توحيد الله وترك الشرك.

٢–أن من كذب واحداً من الرسل فقد كذب جميع الرسل.

ولهذا يقول تعالى في كل قصة (كذبت قوم نوح المرسلين).مع أن قوم نوح لم يأتهم إلا نوح.

وكذلك قال تعالى في عاد (كذبت عاد المرسلين).

وكذلك في ثمود (كذبت ثمود المرسلين).

٣ – أن الآيات مهما كانت واضحة فإنها لا تهدي القوم المجرمين.

كما قال تعالى عن قوم ثمود لما جاءتهم الناقة وهي من أوضح الآيات (وآتينا ثمود الناقة مبصرة) أي واضحة جلية في دلالتها على وحدانية الله تعالى.

٤–أن الله لا يعذب أمة إلا بعد إقامة الحجة عليهم .

٥–أن كل رسول يرسله الله يأتي بآيات تدل على صدقه .

٦–ينبغي الاعتبار والاتعاظ عند المرور بديار المعذبين. وقد أسرع النبي – صلى الله عليه وسلم – لما مر بديار ثمود.

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨٦)) .

[الحجر : ٨٥-٨٦]

(**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ**) أي: وليس عبثاً ، فإن الله منزه عن العبث ، فكل شيء أوجده الله

أوجده لحكمة ، فالحق ضد الباطل ، فالله خلقهما لحكم باهرة ، لم يخلقهما باطلاً ولا عبثاً ولا لعباً .

كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّار).

وقال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ).

وقال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُون).

وقال تعالى (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً) .

وقال تعالى (مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ) .

فمن الحق الذي كان خلقهما من أجله: إقامة البرهان على أنه الواحد المعبود وحده جلا وعلا.

كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ).

وقال تعالى (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ).

ولما بين تعالى في أول سورة الفرقان ، صفات من يستحق أن يعبد ومن لا يستحق ، قال في صفات من يستحق العبادة (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرا).

والآيات في مثل ذلك كثيرة تدل دلالة واضحة على أنه تعالى ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلا خلقاً متلبساً بالحق .

ومن الحق الذي من أجله خلق السموات والأرض : تعليمه لخلقه أنه تعالى على كل شيء قدير ، وأنه قد أحاط بكل شيء علماً ، كما قال تعالى (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً).

ومن الحق الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما: هو تكليف الخلق، وابتلاؤهم أيهم أحسن عملاً ثم جزاؤهم على أعمالهم، كما قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً).

ولما ظن الكفار أن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً ، لا لحكمة تكليف وحساب وجزاء ، هددهم بالويل من النار بسبب ذلك الظن السيئ فقال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ) .

وقد نزه تعالى نفسه عن كونه خلق الخلق عبثاً ، فقال تعالى (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ. فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ). فقوله تعالى (فَتَعَالَى اللَّهُ) أي: تنزه وتعاظم وتقدس عن أن يكون خلقهم لا لحكمة.

ومن الحق إثبات البعث ، لأنهما من أعظم المخلوقات، ومن قدر على خلق الأعظم، فهو على غيره قادر من باب أحرى، وأوضح الله تعالى هذا البرهان في آيات كثيرة:

كقوله تعالى (لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس) وقوله (أَوَلَيْسَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض بِقَادِرٍ على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بلى وَهُوَ الخلاق العليم)، وقوله (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ الله الذي خَلَقَ السماوات والأرض وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ على أَن يُحْيِيَ الموتى بلى)، وقوله (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ الله الذي خَلَقَ السماوات والأرض قَادِرٌ على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ)، وقوله: (أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السمآء بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا) الآية .. إلى غير ذلك من الآيات.

(وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ) لا محالة .

كما قال تعالى (إِنَّ الساعة آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا) .

وقوله (وَأَنَّ الساعة آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ الله يَبْعَثُ مَن فِي القبور) .
وقوله (إِنَّ زَلْزَلَةَ الساعة شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا) .
وقوله (وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وعْدَ الله حَقٌّ والساعة لاَ رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا الساعة) .
وبين جل وعلا إنكار الكفار لها في مواضع أخر :
كقوله (وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَأْتِينَا الساعة قُلْ بلى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ) .
وقوله (زَعَمَ الذين كفروا أَن لَّن يُبْعَثُواْ) .
وقوله (إِنَّ هؤلاء لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأولى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ) .
- مباحث الساعة:
أولاً: سميت القيامة بالساعة لوقوعها بغتة، أو لأن حساب الخلق يقضي فيها في ساعة واحدة فسمي بالساعة لهذا السبب أو لأنها على طولها كساعة واحدة عند الخلق.
ثانياً: والساعة تطلق على ثلاثة معان:
الساعة الصغرى: وهي موت الإنسان ، فمن مات فقد قامت قيامته ، لدخوله في عالم الآخرة.
والساعة الوسطى: وهي موت أهل القرن الواحد ، ويؤيد ذلك ما روته عائشة قالت (كان الأعراب إذا قدموا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سألوه عن الساعة: متى الساعة؟ فنظر إلى أحدث إنسان منهم ، فقال: إن يعش هذا لم يدركه الهرم ، قامت عليكم ساعتكم) رواه مسلم. أي: موتهم ، والمراد ساعة المخاطبين.
والساعة الكبرى: وهي بعث الناس من قبورهم للحساب والجزاء.
ثالثاً: وإذا أطلقت الساعة في القرآن ، فالمراد بها القيامة الكبرى .
كقوله تعالى (يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ) وكقوله تعالى (يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ) وكقوله تعالى (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ).
رابعاً: لا يعلم متى قيام الساعة إلا الله.
قال تعالى (قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي) أي لا يعلم الوقت الذي فيه يحصل قيام القيامة إلا الله سبحانه.
وقال تعال (إِنَّ الله عِندَهُ عِلْمُ الساعة).
وقال تعالى (إِنَّ الساعة ءاتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا).
وقال تعالى (إِنَّ الساعة ءاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا).
ولما سأل جبريل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال: متى الساعة فقال - عليه السلام -: " ليس المسؤول عنها بأعلم من السائل.
خامساً: لكن هي قريبة:
قال تعالى (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ).
وقال تعالى (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ).
سادساً: السبب في إخفائها:
قال المحققون: والسبب في إخفاء الساعة عن العباد؟ أنهم إذا لم يعلموا متى تكون، كانوا على حذر منها، فيكون ذلك أدعى إلى الطاعة، وأزجر عن المعصية.
سابعاً: أن للساعة علامات تدل على قربها.

وعلامات الساعة تنقسم إلى قسمين:

أشراط صغرى.

وهي التي تتقدم الساعة بأزمان متطاولة، وتكون من نوع المعتاد، كقبض العلم، وظهور الجهل، وشرب الخمر، والتطاول في البنيان.

أشراط كبرى.

وهي الأمور العظام التي تظهر قرب قيام الساعة، وتكون غير معتادة الوقوع، كظهور الدجال، ونزول عيسى، وخروج يأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها.

(**فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ**) أمر الله جل وعلا نبيه عليه الصلاة والسلام في هذه الآية الكريمة أن يصفح عمن أساء الصفح الجميل ، أي بالحلم والإغضاء .

والصفح الجميل: ترك المؤاخذة على الذنب، وإغضاء الطرف عن مرتكبه بدون معاتبة.

قال علي وابن عباس : الصفح الجميل : الرضا بغير عتاب. وأمره ﷺ يشمل حكمه الأمة. لأنه قدوتهم والمشرع لهم.

وبين تعالى ذلك المعنى في مواضع أخر :

كقوله (فاصفح عَنْهُمْ وَقُلْ سَلاَمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) .

وقوله (وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً) .

وقوله (وَإِذَا سَمِعُواْ اللغو أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الجاهلين) .

وقوله (فاعفوا واصفحوا حتى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ) .

وقال بعض العلماء : هذا الأمر بالصفح منسوخ بآيات السيف. وقيل : هو غير منسوخ. والمراد به حسن المخالفة ، وهي المعاملة بحسن الخلق.

قال ابنُ كثير: قال مجاهدٌ وقتادةُ وغيرهما: كان هذا قبلَ القِتالِ. وهو كما قالا؛ فإنَّ هذه مكيَّةٌ، والقتالُ إنَّما شُرِع بعدَ الهجرةِ .

(**إِنَّ رَبَّكَ**) يا محمد .

(**هُوَ الْخَلاَّقُ**) الخالق لكل شيء .

(**الْعَلِيمُ**) بأحوال العباد لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ولا يخفى عليه .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه الخلاق العليم. والخلاق والعليم : كلاهما صيغة مبالغة.

والآية تشير إلى أنه لا يمكن أن يتصف الخلاق بكونه خلاقاً إلا وهو عليم بكل شيء ، لا يخفى عليه شيء ، إذ الجاهل بالشيء لا يمكنه أن يخلقه.

وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة :

كقوله تعالى (قُلْ يُحْيِيهَا الذي أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) .

وقوله (أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيف الخبير) .

وقوله (ثُمَّ استوى إِلَى السمآء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) .

وقوله (الله الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأرض مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأمر بَيْنَهُنَّ لتعلموا أَنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ الله قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَا) .

الفوائد :

١. أن الله خالق كل شيء .

٢. أن الله خلق السماوات والأرض لحكمة .

٣. تنزيه الله عن العبث .

٤. أن أفعال الله كلها لحكمة .

٥. إثبات الساعة .

٦. أنها آتية لا شك فيها .

٧. فضل الصفح والعفو .

٨. عموم علم الله لكل شيء .

(وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧)) .

[الحجر : ٨٧] .

(وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) أي ولقد أعطيناك يا أيها الرسول سبع آيات ، هي الفاتحة لأنها تثنى أي تكرر قراءتها في الصلاة ، وفي الحديث : (الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيمُ الذي أوتيته) .

وقيل : هي السور السبع الطوال .

والأول أرجح .

وهو قول جمهور العلماء .

–قال الشوكاني : اختلف أهل العلم في السبع المثاني ماذا هي؟

فقال جمهور المفسرين : إنها الفاتحة.

وقال الواحدي : وأكثر المفسرين على أنها فاتحة الكتاب ، وهو قول عمر ، وعليّ ، وابن مسعود ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، والربيع ، والكلبي.

وزاد القرطبي : أبا هريرة وأبا العالية ، وزاد النيسابوري : الضحاك وسعيد بن جبير.

وقد روي ذلك من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سيأتي بيانه ، فتعين المصير إليه. (فتح القدير) .

–قال الحافظ : اخْتُلِفَ فِي تَسْمِيَتهَا " مَثَانِي " فَقِيلَ لِأَنَّهَا تُثَنَّى كُلّ رَكْعَة أَيْ تُعَاد ، وَقِيلَ لِأَنَّهَا يُثْنَى بِهَا عَلَى اللَّه تَعَالَى ، وَقِيلَ لِأَنَّهَا اُسْتُثْنِيَتْ لِهَذِهِ الْأُمَّة لَمْ تَنْزِل عَلَى مَنْ قَبْلهَا . (الفتح) .

–وقال ابن الجوزي : وفي تسميتها بالمثاني سبعة أقوال :

أحدها : لأن الله استثناها لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فلم يعطِها أمةً قبلهم .

والثاني : لأنها تُثنَّى في كل ركعة .

قال ابن قتيبة : سمي "الحمد" مثانيَ ، لأنها تُثنَّى في كل صلاة.

والثالث : لأنها ما أُثني به على الله تعالى ، لأن فيها حمد الله وتوحيده وذِكر مملكته ، ذكره الزجاج.

والرابع : لأن فيها "الرحمن الرحيم" مرتين ، ذكره أبو سليمان الدمشقي عن بعض اللغويين ، وهذا على قول من يرى التسمية منها.

والخامس : لأنها مقسومة بين الله تعالى وبين عبده ، ويدل عليه حديث أبي هريرة "قسمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي".

والسادس : لأنها نزلت مرتين ، ذكره الحسين بن الفضل.

والسابع : لأن كلماتها مثنّاة ، مثل : الرحمن الرحيم ، إياك إياك ، الصراط صراط ، عليهم عليهم ، غير غير ، ذكره بعض المفسرين.

(**وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ**) قيل لها " القرآن العظيم " لأنها هي أعظم سورة. كما ثبت عن النّبي ﷺ في الحديث الصحيح المذكور آنفاً.

وإما عطف القرآن العظيم على السبع المثاني مع أن المراد بهما واحد وهو الفاتحة لما علم في اللغة العربية : من أن الشيء الواحد إذا ذكر بصفتين مختلفتين جاز عطف إحداهما على الأخرى تنزيلاً لتغاير الصفات منزلة تغاير الذوات. ومنه قوله تعالى (سَبّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى الذي خَلَقَ فسوى والذي قَدَّرَ فهدى والذي أَخْرَجَ المرعى) . (أضواء البيان) .

فائدة : ١

أسماؤها:

الاسم الأول: فاتحة الكتاب.

ويعد هذا أشهر أسمائها، وقد ثبتت هذه التسمية في السنة في أحاديث كثيرة.

كقوله ﷺ (لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب) متفق عليه .

وقوله ﷺ (من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج) رواه مسلم.

وسبب التسمية بذلك: كما قال ابن كثير: لأنها فاتحة الكتاب خطاً وبها تفتح القراءة في الصلوات.

الاسم الثاني: أم الكتاب، أم القرآن.

وقد ورد هذا الاسم في السنة في أحاديث كثيرة.

كقوله ﷺ (أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم) رواه البخاري .

وقوله ﷺ (الحمد لله رب العالمين أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني) رواه الترمذي.

وسبب التسمية بذلك: أن أم الشيء أصله، وهي أصل القرآن لاشتمالها على أنواع أغراض القرآن ومقاصده.

قال البغوي رحمه الله: سميت أم القرآن وأم الكتاب، لأنها أصل القرآن، منها بدئ القرآن.

الاسم الثالث: السبع المثاني.

لقوله تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي) .

كقوله ﷺ لأبي سعيد بن المعلى (ألا أعلمنك أعظم سورة في القرآن، .... الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته) رواه البخاري.

سبب التسمية: أما السبع، فلأن آياتها سبع .

وأما وصف النبي ﷺ لآياتها بالمثاني، فأرجح الأقوال أنها تثنى في الصلاة، أي تكرر، فتكون التثنية بمعنى التكرار .

الاسم الرابع: القرآن العظيم.

كما قال ﷺ (الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته).

سبب التسمية: قال القرطبي: سميت بذلك لتضمنها جميع علوم القرآن.

الاسم الخامس: سورة الحمد .

سميت بذلك لأنه ذكر في أولها لفظ الحمد.

الاسم السادس: الصلاة.

وهذا الاسم ثبت بالسنة.

فقد قال ﷺ (قال تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي، فإذا قال الحمد لله رب العالمين، قال حمدني عبدي) رواه مسلم.

وقد ذكر الإمام النووي في شرحه على مسلم بعد ذكر الحديث السابق أن المراد بالصلاة الفاتحة، وعلل تسميتها بقوله: لأنها لا تصح الصلاة إلا بها .

فائدة : ٢

عدد آياتها:

قال ابن كثير : وهي سبع بلا خلاف.

وهي مكية لقوله تعالى (ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم) .

فائدة : ٣

فضلها :

عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى قَالَ : كُنْتُ أُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ فَدَعَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمْ أُجِبْهُ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي فَقَالَ أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ : {اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ} ثُمَّ قَالَ لِي لأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ قُلْتُ لَهُ أَلَمْ تَقُلْ لأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَالَ (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ : هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ) رواه البخاري .

وقوله ﷺ (الحمد لله رب العالمين أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني) رواه الترمذي .

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ (بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلاَّ الْيَوْمَ فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ فَقَالَ هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلاَّ الْيَوْمَ فَسَلَّمَ وَقَالَ أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلاَّ أُعْطِيتَهُ) رواه مسلم .

الفوائد :

١. فضل سورة الفاتحة .
٢. أنها سبع آيات بالإجماع .
٣. أنها مكية .

سميت مثاني لأنها تثنى بالقراءة في كل ركعة .

(لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨)) .

[الحجر : ٨٨] .

(لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ) أي : لا تحفل- أيها الرسول الكريم- ولا تطمح ببصرك طموح الراغب في ذلك المتاع الزائل، الذي متع الله- تعالى- به أصنافا من المشركين فإن ما بين أيديهم منه شيء سينتهي عما قريب، وقد آتاهم الله- تعالى- إياه على سبيل الاستدراج والإملاء، وأعطاك ما هو خير منه وأبقى، وهو القرآن العظيم.

كما قال تعالى (وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى) .

يقول تعالى لنبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه : لا تنظر إلى هؤلاء المترفين وأشباههم ونظرائهم ، وما هم فيه من النعيم ، فإنما هو زهرة زائلة ، ونعمة حائلة ، لنختبرهم بذلك ، وقليل من عبادي الشكور.

والمراد بالأزواج هنا : الأصناف من الذين متعهم الله بالدنيا.

والسبب في النهي عن ذلك أنه يؤدي :

قال الواحدي : المرادُ بنهيِه ﷺ من مدِّ العَينِ: نهيُه عن التطلُّعِ إليه رغبةً فيه، وإنما يكون مادًّا عينيه إلى الشيءِ: إذا أدام النظرَ نحوَه، وإدامةُ النظرِ إلى الشيء تدلُّ على استحسانِه وتمنِّيه.

أ-احتقار نعمة الله عليه .

ب-سبب في عدم شكر نعمة الله .

ج-ولأن في النظر للمترفين تؤدي إلى عدم القناعة .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ (انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اَللَّهِ عَلَيْكُمْ) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وفي لفظ قال ﷺ (إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ فِي الْمَالِ وَالْخَلْقِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ مِمَّنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ) .

فنستفيد أنه ينبغي للمسلم أن ينظر في أمور الدنيا – من جاه ومال ومسكن – إلى من هو أقل منه ودونه ، ولا ينظر إلى من هو فوقه .

في ذلك فوائد :

أولاً : شكر الله على نعمه ، فهذا التوجيه النبوي من أعظم أسباب تحقيق عبودية الشكر لله تعالى .

ثانياً : عدم احتقاره نعمة الله على العبد .

قال النووي : قَالَ اِبْن جَرِير وَغَيْره : هَذَا حَدِيث جَامِع لِأَنْوَاعٍ مِنْ الْخَيْر ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان إِذَا رَأَى مَنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا طَلَبَتْ نَفْسه مِثْل ذَلِكَ ، وَاسْتَصْغَرَ مَا عِنْده مِنْ نِعْمَة اللَّه تَعَالَى ، وَحَرَصَ عَلَى الِازْدِيَاد لِيَلْحَق بِذَلِكَ أَوْ يُقَارِبهُ . هَذَا هُوَ الْمَوْجُود فِي غَالِب النَّاس . وَأَمَّا إِذَا نَظَرَ فِي أُمُور الدُّنْيَا إِلَى مَنْ هُوَ دُونه فِيهَا ظَهَرَتْ لَهُ نِعْمَة اللَّه تَعَالَى عَلَيْهِ ، فَشَكَرَهَا ، وَتَوَاضَعَ ، وَفَعَلَ فِيهِ الْخَيْر .

وقال السعدي : ومن أنفع الأشياء في هذا الموضع: استعمال ما أرشد إليه النبي ﷺ في الحديث الصحيح حيث قال (انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم) ، فإن العبد إذا نصب بين عينيه هذا الملحظ الجليل، رآه يفوق جمعاً كثيراً من الخلق في العافية وتوابعها، وفي الرزق وتوابعه مهما بلغت به الحال، فيزول قلقه وهمه وغمه، ويزداد سروره واغتباطه بنعم الله التي فاق فيها غيره ممن هو دونه فيها ... وكلما طال تأمل العبد بنعم الله الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، رأى ربه قد أعطاه خيرا كثيرا ودفع عنه شرورا متعددة، ولا شك أن هذا يدفع الهموم والغموم، ويوجب الفرح والسرور. انتهى .

ولذلك كان النبي ﷺ يقول : اللهم ارزقني حب المساكين .

قال ابن رجب رحمه الله : اعلم أن محبة المساكين لها فوائد كثيرة:

منها : أنها توجب إخلاص العمل لله.

لأن الإحسان إليهم لمحبتهم لا يكون إلا لله تعالى ، لأن نفعهم في الدنيا لا يرجى غالباً.

ومنها: أنها تزيل الكبْر.

لأن المستكبر لا يرضى مجالسة المساكين ، كما سبق عن رؤساء قريش والأعراب.

ومنها: أنه يوجب صلاح القلب وخشوعه.

ففي حديث أبي هريرة (أن رجلاً شكى إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه ، فقال له: إن أحببتَ أن يلين قلبُك فأطعم المسكين ، وامسح رأس اليتيم) رواه أحمد.

ومنها: أن مجالسة المساكين توجب رضى من يجالسهم برزق الله عز وجل ، وتعظم عنده نعمة الله ، ومجالسة الأغنياء توجب التسخط بالرزق ومد العين إلى زينتهم وما هم فيه ، وقد نهى الله عز وجل نبيه ﷺ عن ذلك فقال تعالى (وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى) وقال ﷺ (انظروا إلى من دونكم ، ولا تنظروا إلى من فوقكم ، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم).

ومنها: أن النبي ﷺ أوصى بحب المساكين.

قال أبو الدرداء (أوصاني رسول الله ﷺ أن أنظر إلى دوني، ولا أنظر إلى من فوقي، وأوصاني أن أحب المساكين وأن أدنو منهم).

وكان عون بن عبد اله يجالس الأغنياء فلا يزال في غم ، لأنه لا يزال يرى من هو أحسن منه لباساً ومركباً وطعاماً ومسكناً ، فتركهم وجالس المساكين فاستراح.

وفي الحديث (اللهم إني أسألك فعل الخيرات ... وحب المساكين).

ويروى أن داود كان يجالس المساكين ويقول: مسكين بين مساكين.

قال ابن رجب : وحب المساكين مستلزم لإخلاص العمل لله تعالى، والإخلاص هو أساس الأعمال الذي لا تثبت الأعمال إلا عليه.

ولم يزل السلف يوصون بحب المساكين.

(**وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ**) الصحيح في معنى هذه الآية الكريمة : أن الله نهى نبيه صلى الله عليه وسلم عن الحزن على الكفار إذا امتنعوا من قبول الإسلام. ويدل لذلك كثرة ورود هذا المعنى في القرآن العظيم :

كقوله (وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ) .

وقوله (فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ) .

وقوله (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ) .

وقوله (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا الحديث أَسَفاً) .

والمعنى : قد بلغت وليست مسؤولاً عن شقاوتهم إذا امتنعوا من الإيمان ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ، فلا تحزن عليهم إذا كانوا أشقياء.

وقيل المعنى : ولا تحزَنْ على ما مُتِّعُوا به فعُجِّلَ لهم؛ فإنَّ لك في الآخرةِ ما هو خيرٌ منه، معَ الذي قد عجَّلْنا لك في الدنيا مِن الكرامةِ، بإعطائِنا السبعَ المثانيَ والقرآنَ العظيم ، واختاره ابن جرير .

(**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ**) أمر الله جل وعلا نبيه في هذه الآية الكريمة بخفض جناحه للمؤمنين. وخفض الجناح كناية عن لين الجانب والتواضع .

وبين هذا المعنى في مواضع أخر. كقوله في الشعراء : (واخفض جَنَاحَكَ لِمَنِ اتبعك مِنَ المؤمنين) .

وكقوله (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ الله لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القلب لاَنْفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فاعف عَنْهُمْ واستغفر لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأمر).

ويفهم من دليل خطاب الآية الكريمة – أعني مفهوم مخالفتها – أن غير المؤمنين لا يخفض لهم الجناح ، بل يعاملون بالشدة والغلظة.

وقد بين تعالى هذا المفهوم في مواضع أخر:

كقوله تعالى (يا أيها النبي جَاهِدِ الكفار والمنافقين واغلظ عَلَيْهِمْ) .
وقوله (أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ) .
وقوله (أَذِلَّةٍ عَلَى المؤمنين أَعِزَّةٍ عَلَى الكافرين) .

الفوائد :

١. النهي عن النظر إلى متع الدنيا والتطلع لها .
٢. حكمة الله في النهي عن ذلك ، لأن ذلك يؤدي إلى احتقار نعمة الله على العبد ، ومن ثم قلة الشكر .
٣. الحذر من زهرة الدنيا وشهواتها وفتنها .
٤. على المسلم أن يتعلق بنعيم الآخرة .
٥. حرص النبي ﷺ على هداية الكفار .
٦. دفاع الله تعالى عن النبي ﷺ وتسليته .
٧. خفض الجناح والتواضع واللين مع أهل الإيمان .
٨. الغلظة والشدة على الكفار .
٩. فضل التواضع لله .

(وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ (٩٦)) .

[الحجر : ٨٩- ٩٦] .

(وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ) يَأْمُرُ تَعَالَى نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ: إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ الْبَيِّنُ النِّذَارَةِ، نَذِيرٌ لِلنَّاسِ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ أَنْ يَحِلَّ بِهِمْ عَلَى تَكْذِيبِهِ كَمَا حَلَّ بِمَنْ تَقَدَّمَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ لِرُسُلِهَا، وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالِانْتِقَامِ .

(كَمَا أَنزَلْنَا) العذاب ، يعني أنذركم عذاباً كعذاب أنزلناه بالمقتسمين .

(عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ) يعني أنذركم عذاباً كعذاب أنزلناه بالمقتسمين (يعني اليهود) وهو ما جرى على قريظة والنضير.

–قال في التسهيل : الكاف من كما متعلقة بقوله : أنا النذير أي أنذر قريشاً عذاباً مثل العذاب الذي أنزل على المقتسمين .

وفي المراد بالمقتسمين أقوال للعلماء :

القول الأول : أراد بالمقتسمين اليهود والنصارى. وهو قول الحسن ومجاهد وقتادة .

سموا بذلك لأنهم آمنوا ببعض القرآن وكفروا ببعضه ، فما وافق كتبهم آمنوا به وما خالف كتبهم كفروا به .

وقال عكرمة: إنهم اقتسموا سور القرآن فقال واحد منهم هذه السورة لي وقال: آخر هذه السورة لي، وإنما فعلوا ذلك استهزاء به.

وقال مجاهد : إنهم اقتسموا كتبهم فآمنوا ببعضها وكفروا ببعضها ، وكفر آخرون منهم بما آمن به غيرهم.

القول الثاني : أراد بالمقتسمين كفار قريش سموا بذلك لأن أقوالهم تقسمت في القرآن.

فقال بعضهم : إنه سحر وزعم بعضهم أنه كهانة وزعم بعضهم إنه أساطير الأولين .

قال ابن السائب : سموا بالمقتسمين لأنهم اقتسموا عقاب مكة وطرقها ، وذلك أن الوليد بن المغيرة بعث رهطاً من أهل مكة.

قيل ستة عشر.

وقيل : أربعين.

فقال لهم : انطلقوا فتفرقوا على عقاب مكة وطرقها حيث يمر بكم أهل الموسم ، فإذا سألوكم عن محمد فليقل بعضكم إنه كاهن وليقل بعضكم إنه شاعر ، وليقل بعضكم إنه ساحر فإذا جاؤوا إلي صدقتكم فذهبوا وقعدوا على عقاب مكة وطرقها يقولون لمن مر بهم من حجاج العرب : لا تغتروا بهذا الخارج الذي يدعي النبوة منا فإنه مجنون كاهن ، وشاعر.

(**الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ**) أي: أصنافاً وأعضاء وأجزاء، يصرفونه بحسب ما يهوونه، فمنهم من يقول: سحر ومنهم من يقول: كهانة ومنهم من يقول: مفترى إلى غير ذلك من أقوال الكفرة المكذبين به، الذين جعلوا قدحهم فيه ليصدوا الناس عن الهدى.

ولابنِ تيميةَ تفسيرٌ آخرُ، فقال: (قوله تعالى: الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ) أي: قسَّموه فآمنوا ببعضِه وكفروا ببعضِه .

واختاره ابنُ كثير .

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس

(**فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**) أي : فوا حق ربك- أيها الرسول الكريم- الذي خلقك فسواك فعدلك، لنسألن هؤلاء المكذبين جميعا، سؤال توبيخ وتقريع وتبكيت، عما كانوا يعملونه في الدنيا من أعمال قبيحة: وعما كانوا يقولونه من أقوال فاسدة، ثم لننزلن بهم جميعاً العقوبة المناسبة لهم.

فالمقصود من هذه الآية الكريمة زيادة التسلية للرسول ﷺ وتأكيد التهديد للمشركين.

ذهب بعض العلماء : إلى أنَّ الضميرَ في قوله تعالى (لَنَسْأَلَنَّهُمْ) يعودُ إلى المقتسمينَ الذين جعلوا القرآنَ عضينَ .

واختاره ابنُ جريرٍ، ومكيُّ بنُ أبي طالب، وأبو حيان، والنسفي، والسعدي.

وذهب بعضهم إلى أن الضمير عام يشمل جميع الخلائق .

وممن اختار ذلك : ابنُ عطية، والقرطبي، وابنُ كثيرٍ، والنيسابوري، والثعالبي، ومحمد رشيد رضا، والشنقيطي .

-هذه الآية الكريمة تدل على أن الله يسأل جميع الناس يوم القيامة ونظيرها قوله تعالى (وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ)، وقوله (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ).

وقد جاءت آيات أخر تدل على خلاف ذلك كقوله (فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ) وكقوله (وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ).

والجواب عن هذا من ثلاثة أوجه:

الأول: وهو أوجهها لدلالة القرآن عليه وهو أن السؤال قسمان: سؤال توبيخ وتقريع، وأداته غالبا (لم)، وسؤال استخبار واستعلام وأداته غالبا (هل) فالمثبت هو سؤال التوبيخ والتقريع، والمنفي هو سؤال: الاستخبار والاستعلام، وجه دلالة القرآن على هذا أن سؤاله لهم المنصوص في القرآن كله توبيخ وتقريع كقوله (وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ، مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ).

وكقوله (أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ).

وكقوله (أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ).

وكقوله (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ) إلى غير ذلك من الآيات، وسؤال الله للرسل ماذا أجبتم لتوبيخ الذين كذبوهم كسؤال الموؤودة بأي ذنب قتلت لتوبيخ قاتلها.

الوجه الثاني: أن في القيامة مواقف متعددة ففي بعضها يسألون وفي بعضها لا يسألون.

الوجه الثالث: هو ما ذكره الحليمي من أن إثبات السؤال محمول على السؤال عن التوحيد وتصديق الرسل، وعدم السؤال محمول على ما يستلزمه الإقرار بالنبوات من شرائع الدين وفروعه، ويدل لهذا قوله تعالى فيقول: (مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ) والعلم عند الله تعالى.

(**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ**) أي فاجهر به وأظهره.

وهذه الآية الكريمة أمر الله فيها نبيه صلى الله عليه وسلم بتبليغ ما أمر به علناً في غير خفاء ولا مواربة. وأوضح هذا المعنى في مواضع كثيرة ، كقوله (يا أيها الرسول بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ) .

(**وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ**) في هذه الآية الكريمة قولان معروفان للعلماء :

أحدهما – أن معنى (وأعرض عن المشركين) أي لا تبال بتكذيبهم واستهزائهم ، ولا يصعب عليك ذلك. فالله حافظك منهم.

والآية على هذا التأويل معناها : فاصدع بما تؤمر – أي بلغ رسالة ربك ، وأعرض عن المشركين ، أي لا تبال بهم ولا تخشهم.

وهذا المعنى .كقوله تعالى (يا أيها الرسول بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْـعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ والله يَعْصِمُكَ مِنَ الناس).

الوجه الثاني – وهو الظاهر في معنى الآية – أنه كان في أول الأمر مأموراً بالإعراض عن المشركين ، ثم نسخ ذلك بآيات السيف.

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى (اتبع مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إله إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ المشركين) .

وقوله (فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وانتظر إِنَّهُمْ مُّنتَظِرُونَ) وقوله (فَأَعْرِضْ عَن مَّن تولى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الحياة الدنيا) وقوله (وَلاَ تُطِعِ الكافرين والمنافقين وَدَعْ أَذَاهُمْ) .

(**إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ**) أي :كفيناك شر أعدائك المستهزئين بإهلاكنا إياهم ، وكانوا خمسة من صناديد قريش .

–**قال الرازي** : واعلم أن المفسرين قد اختلفوا في عدد هؤلاء المستهزئين وفي أسمائهم وفي كيفية طريق استهزائهم ، ولا حاجة إلى شيء منها ، والقدر المعلوم أنهم طبقة لهم قوة وشوكة ورياسة لأن أمثالهم هم الذين يقدرون على إظهار مثل هذه السفاهة مع مثل رسول الله ﷺ في علو قدره وعظم منصبه ، ودل القرآن على أن الله تعالى أفناهم وأبادهم وأزال كيدهم ، والله أعلم.

–**قال أبو حيان** : ثم أخبره تعالى أنه كفاه المستهزئين بمصائب أصابتهم لم يسع فيها الرسول ولا تكلف لها مشقة.

–**قال ابن جزي** : (إِنَّا كفيناك المستهزئين) يعني قوماً من أهل مكة ؛ أهلكهم الله بأنواع الهلاك من غير سعي النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانوا خمسة : الوليد بن المغيرة ، والعاصي بن وائل ، والأسود بن عبد المطلب ، والأسود بن عبد يغوث وعدي بن قيس ، وقصة هلاكهم مذكورة في السير ، وقيل : الذين قتلوا ببدر كأبي جهل وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط وغيرهم ، والأول أرجح ، لأن الله كفاه إياهم بمكة قبل الهجرة .

–**وقال النسفي** : (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ) الجمهور على أنها نزلت في خمسة نفر كانوا يبالغون في إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم والاستهزاء به فأهلكهم الله وهم : الوليد بن المغيرة مر بنبّال فتعلق بثوبه سهم فأصاب عرقاً في عقبه فقطعه فمات ، والعاص بن وائل دخل في أخمصه شوكة فانفتخت رجله فمات ، والأسود بن عبد المطلب عمي ، والأسود ابن عبد يغوث جعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات ، والحارث بن قيس امتخط قيحاً ومات .

–**قال السعدي** : وقد فعل تعالى فإنه ما تظاهر أحد بالاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به إلا أهلكه الله وقتله شر قتلة.

(**الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ**) تهديد شديد ووعيد أكيد لمن جعل مع الله معبوداً آخر .

في هذا تحريم الشرك ، هو تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله تعالى.
قال الذهبي: وهو أن تجعل لله نداً وهو خلقك، وتعبد معه غيره من حجر أو بشر أو شمس أو قمر أو نبي أو شيخ أو غير ذلك.
وهو أعظم ذنب عصي الله به،، وأي ذنب أعظم من أن يجعل مع الله شريك في ألوهيته أو ربوبيته أو أسمائه وصفاته، وهو هضم للربوبية وتنقص للألوهية، وسوء ظن برب العالمين، وهو أقبح المعاصي، لأنه تسوية المخلوق الناقص بالخالق الكامل من جميع الوجوه.
عن عَبْدُ اللَّهِ قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَيُّ الذَّنْبِ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ «أَنْ تَدْعُوَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ».
الفوائد :

١. أن النبي ﷺ عبد يأمر وينهى .
٢. أمر الله لنبيه ﷺ أن يعلن للناس أنه نذير وبشير .
٣. أن مهمة الرسل البشارة والنذارة .
٤. أن هداية التوفيق بيد الله .
٥. تهديد الكفار – إذا استمروا على كفرهم – بالعذاب .
٦. إثبات الحساب والجزاء .
٧. تهديد الكفار بالسؤال عن أعمالهم يوم القيامة .
٨. أمر النبي ﷺ بالصدع بالدعوة والاستمرار على نشرها .
٩. على الداعية أن لا يلتفت إلى ما يقوله الأعداء ، بل يستمر في دعوته .
١٠. تسلية للنبي ﷺ ولكل داعية أن الله يكفيه شر المستهزئين .
١١. تحريم عبادة غير الله .
١٢. وجوب عبادة الله .

(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)) .
[الحجر : ٩٧-٩٩] .

(**وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ**) أَيْ : وَإِنَّا لَنَعْلَمُ يَا مُحَمَّدُ أَنَّكَ يحصل لك من أذاهم لك ضيق صدر وانقباض فَلَا يَهِيدَنَّكَ ذَلِكَ وَلَا يَثْنِيَنَّكَ عَنْ إِبْلَاغِكَ رسالة الله، وتوكل عليه فَإِنَّهُ كَافِيكَ وَنَاصِرُكَ عَلَيْهِمْ، فَاشْتَغِلْ بِذِكْرِ اللَّهِ وَتَحْمِيدِهِ وَتَسْبِيحِهِ وَعِبَادَتِهِ الَّتِي هِيَ الصَّلَاةُ، وَلِهَذَا قال: فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ.
وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر :
كقوله (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الذي يَقُولُونَ) .
وقوله (فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يوحى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُ مَلَكٌ) .
وقوله (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا الحديث أَسَفاً) .
وضيق الصدر : كناية عن كدر النفس وتعرضها للهموم والأحزان .
–**قال الرازي** : لأن الجبلة البشرية والمزاج الإنساني يقتضي ذلك .

–**قال ابن عطية** : آية تأنيس للنبي عليه السلام ، وتسلية عن أقوال المشركين وإن كانت مما يقلق ، وضيق الصدر يكون من امتلائه غيظاً بما يكره الإنسان ، ثم أمره تعالى بملازمة الطاعة وأن تكون مسلاته عند الهموم .

(**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ**) أي : متلبساً بحمده ، أي : افعل التسبيح المتلبس بالحمد .

واصل التسبيح في اللغة : الإبعاد عن السوء. ومعناه في عرف الشرع : تنزيه الله جل وعلا عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله.

ومعنى سبح : نزه ربك جل وعلا عن كل ما لا يليق بكماله وجلال .

وقوله (بحمد ربك) أي : في حال كونك متلبساً بحمد ربك ، أي بالثناء عليه بجميع ما هو أهله من صفات الكمال والجلال ، لأن لفظة { بحمد ربك } أضيفت إلى معرفة فتعم جميع المحامد من كل وصف وجلال ثابت لله جل وعلا. فتستغرق الآية الكريمة الثناء بكل كمال ، لأن الكمال يكون بأمرين :

أحدهما : التخلي عن الرذائل ، والتنزه عما لا يليق ، وهذا معنى التسبيح.

والثاني : التحلي بالفضائل والاتصاف بصفات الكمال ، وهذا معنى الحمد .

فتم الثناء بكل كمال. ولأجل هذا المعنى ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "كلمتان خفيفتان على اللِّسان ، ثقيلتان في الميزام ، حبيبتان إلى الرَّحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم . (أضواء البيان) .

قال الشيخ ابن عثيمين : ففي التَّسْبيحِ تَنْزيهٌ، وفي الحَمْد كمالٌ.

في الآية فضل تسبيح الله وحمده.

قال ﷺ (أفضل الكلام ما اصطفى الله لملائكته: سبحان الله وبحمده) رواه مسلم.

وقال ﷺ (كلمتان خفيفتان على اللسان، حبيبتان إلى الرحمن، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم) متفق عليه.

وقال ﷺ (من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة في الجنة) رواه الترمذي.

وقال ﷺ (وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض) رواه مسلم.

وقال ﷺ (من قال حين يصبح وحين يمسي سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد) رواه مسلم.

وقال ﷺ (لأن أقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس)رواه مسلم .

(**وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ**) يعني من المصلين ، فذكر من الصلاة حالة القرب من الله تعالى وهي السجود ، وهي أكرم حالات الصلاة وأقمنها بنيل الرحمة ، وفي الحديث كان رسول الله ﷺ : إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة .

لأن العبد إذا قام بين يدي ربه يناجيه ويتلو كتابه هان عليه كل ما في الدنيا رغبة فيما عند الله ورهبة منه فيتباعد عن كل ما لا يرضي الله فيرزقه الله ويهديه.

– **قال ابن القيم**: والصلاة مجلبة للرزق، حافظة للصحة، دافعة للأذى، مطردة للأدواء، مقوية للقلب، مبيضة للوجه، مفرحة للنفس، مذهبة للكسل، منشطة للجوارح، ممدة للقوى، شارحة للصدر، منورة للقلب، حافظة للنعمة، دافعة للنقمة، جالبة للبركة، مبعدة من الشيطان، مقربة من الرحمن، وبالجملة: فلها تأثير عجيب في حفظ الصحة والبدن وقواهما، ودفع المواد الرديئة عنهما، وللصلاة تأثير عجيب في دفع شرور الدنيا، ولا سيما إذا أعطيت حقها من التكميل ظاهراً وباطناً، فما استُدفِعتْ شرور الدنيا والآخرة، ولا استُجلبتْ مصالحهما بمثل الصلاة، وسر ذلك: أن الصلاة صلة بالله، وعلى قدر صلة العبد بربه عز وجل تفتح عليه من الخيرات أبوابها، وتقطع عنه من الشرور أسبابها، وتفيض عليه مواد التوفيق من ربه، والعافية والصحة والغنيمة

والغنى، والراحة والنعيم، والأفراح والمسرات كلها محضرة لديه ومسارعة إليه.

– **وقال الشنقيطي** في بيان سر أن الصلاة معينة على أمور الدنيا والآخرة: لأن العبد إذا وقف بين يدي ربه، يناجي ربه ويتلو كتابه، تذكر ما عند الله من الثواب، وما لديه من العقاب، فهان في عينه كل شيء، وهانت عليه مصائب الدنيا، واستحقر لذاتها، رغبة فيما عند الله، ورهبة مما عند الله.

–قال الشوكاني : فإنك إذا فعلت ذلك ، كشف الله همك ، وأذهب غمك ، وشرح صدرك.

–قال الشنقيطي : اعلم أن ترتيبه جل وعلا الأمر بالتسبيح والسجود على ضيق صدره صلى الله عليه وسلم بسبب ما يقولان له من السوء – دليل على أن الصلاة والتسبيح سبب لزوال ذلك المكروه ، ولذا كان صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر بادر إلى الصلاة. وقال تعالى (واستعينوا بالصبر والصلاة) .

ويؤيد هذا ما رواه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والنسائي من حديث نعيم بن همار رضي الله عنه ، أنه سمع رسول ﷺ يقول (قال الله تعالى : يا ابن آدم لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره) .

فينبغي للمسلم إذا أصابه مكروه أن يفزع إلى الله تعالى بأنواع الطاعات من صلاة وغيرها.

–قال الآلوسي : قوله تعالى (وَكُنْ مّنَ الساجدين) أي المصلين ففيه التعبير عن الكل بالجزء.

وهذا الجزء على ما ذهب إليه البعض أفضل الأجزاء لما صح من قوله ﷺ : أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد " وليس هذا موضع سجدة خلافاً لبعضهم.

وفي أمره صلى الله عليه وسلم بما ذكر إرشاد له إلى ما يكشف به الغم الذي يجده كأنه قيل : افعل ذلك يكشف عنك ربك الغم والضيق الذي تجده في صدرك ولمزيد الاعتناء بأمر الصلاة جيء بالأمر بها كما ترى مغايراً للأمر السابق على هذا الوجه المخصوص.

وفي ذلك من الترغيب فيها ما لا يخفى.

وقد كان صلى الله عليه وسلم إذا أحزنه أمر فزع إلى الصلاة.

(**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**) أي : اعبد ربك يا محمد حتى يأتيك الموت سمى يقينا لأنه متيقن الوقوع والنزول .

والْيَقِينُ : الْمَوْتُ ، فَأَمَرَهُ بِاسْتِمْرَارِ الْعِبَادَةِ أَبَدًا ، وَذَلِكَ مُدَّةَ حَيَاتِهِ ، وَكَانَ هَذَا أَبْلَغُ مِنْ قَوْلِهِ أَبَدًا ، لِاحْتِمَالِ لَفْظَةِ الْأَبَدِ لِلَّحْظَةِ الْوَاحِدَةِ ، وَلِجَمِيعِ الْأَبَدِ ، كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ : وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْت حَيًّا.

–قال السعدي : أي استمر في جميع الأوقات على التقرب إلى الله بأنواع العبادات، فامتثل صلى الله عليه وسلم أمر ربه، فلم يزل دائبا في العبادة، حتى أتاه اليقين من ربه صلى الله عليه وسلم تسليما كثيراً . انتهى .

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْيَقِينَ الْمَوْتَ :

أَنَّ أُمَّ الْعَلَاءِ الْأَنْصَارِيَّةَ وَكَانَتْ بَايَعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ (أَخْبَرَتْ أَنَّهُمْ اقْتَسَمُوا الْمُهَاجِرِينَ قُرْعَةً ، فَصَارَ لَنَا عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ قَالَتْ : فَأَنْزَلْنَاهُ مَعَ أَبْنَائِنَا ، فَوَجِعَ وَجَعَهُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ ، فَلَمَّا تُوُفِّيَ وَغُسِّلَ وَكُفِّنَ فِي أَثْوَابِهِ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقُلْت : رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْك أَبَا السَّائِبِ ، فَشَهَادَتِي عَلَيْك ، لَقَدْ أَكْرَمَك اللَّهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : وَمَا يُدْرِيك أَنَّ اللَّهَ أَكْرَمَهُ ؟ قُلْت : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَهْ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ ، وَاَللَّهِ إنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ) رواه البخاري .

–قال ابن الجوزي : اليقين الموت ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والجمهور ، وسمي يقيناً ، لأنه موقَن به.

–قال القرطبي : فإن قيل : فما فائدة قوله "حتى يأتيك اليقين" وكان قوله : "واعبد ربك" كافياً في الأمر بالعبادة.

قيل له : الفائدة في هذا أنه لو قال : "واعبد ربك" مطلقاً ثم عبده مرة واحدة كان مطيعاً ؛ وإذا قال "حتى يأتيك اليقين" كان

معناه لا تفارق هذا حتى تموت.

فإن قيل : كيف قال سبحانه "واعبد ربك حتى يأتيك اليقِين" ولم يقل أبداً ؛ فالجواب أن اليقين أبلغ من قوله : أبداً ؛ لاحتمال لفظ الأبد للحظة الواحدة ولجميع الأبد.

والمراد استمرار العبادة مدّة حياته ، كما قال العبد الصالح : وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حَيًّا.

–قال الشنقيطي : أمر الله جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يعبد ربه ، اي يقترب له على وجه الذل والخضوع والمحبة بما امر أن يتقرب له به من جميع الطاعات على الوجه المشروع. وجل القرآن في تحقيق هذا الأمر الذي هو حظ الإثبات من لا إله إلا الله ، مع حظ النفي منها. وهو خلع جميع المعبودات سوى الله تعالى في جميع أنواع العبادات.

قال تعالى (فاعبده وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ) .

وقال (فاعبده واصطبر لِعِبَادَتِهِ) .

وقال (واعبدوا الله وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً) .

الفوائد :

١. تسلية الله تعالى لنبيه ﷺ .
٢. منزلة النبي ﷺ العظيمة عند ربه .
٣. علم الله الكامل فلا يخفى عليه شيء .
٤. أن الصدر يضيق .
٥. من أسباب ضيق الصدر سماع كلام الأعداء .
٦. من أسباب انشراح الصدر كثرة ذكر الله وتسبيحه ، (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) .
٧. فضل المحافظة على الصلاة .
٨. من أسباب انشراح الصدر الصلاة .
٩. من أسباب انشراح الصدر الانشغال بعبادة الله من قراءة للقرآن وصلاة ودعاء وصيام وذكر لله تعالى .
١٠. ينبغي على المسلم أن يشغل وقته كله بعبادة الله .
١١. أن قلة ذكر الله من أسباب ضيق الصدر وهمه وغمه .